

## سورة الأعراف وهي مكية

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿التَّصَّ ١﴾ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِئَسْذِرَ بِهِ، وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ١  
 أَنْتَبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾

قد تقدم الكلام فى أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف وسطه واختلاف الناس فيه، قال ابن جرير: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا أبى عن شريك عن عطاء بن السائب عن أبى الضحى عن ابن عباس ﴿التَّصَّ﴾ أنا الله أفصل، وكذا قال سعيد بن جبير ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أى هذا كتاب أنزل إليك أى من ربك ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ قال مجاهد وقتادة والسدى: شك منه، وقيل: لا تتحرج به فى إبلاغه والإنذار به ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

ولهذا قال: ﴿لِئَسْذِرَ بِهِ﴾ أى أنزلناه إليك لتتذبر به الكافرين ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم قال تعالى مخاطباً للعالم: ﴿أَنْتَبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أى اقتفوا آثار النبى الأسمى الذى جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شىء ومليكه ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أى لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره، فتكونوا قد عدلتهم عن حكم الله إلى حكم غيره ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَقَدْ حَرَمْتُمُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] وقوله: ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] الآية وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيْبٍ أَهْلَكْنَاهَا فَبَاءَهَا بِأَسْنَا بِيْنَا أَوْ هُمْ قَابِلُونَ ٢﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ٣﴾ فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ٤﴾ فَلَنَقْصُرَنَّ عَنْهُمْ بِعَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ وَمَا كُنَّا غَافِلِينَ ﴿٢﴾

يقول تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيْبٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أى بمخالفة رسلنا وتكذيبهم، فاعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْبَهْنَاهُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَكَافَى بِالذِّمَّةِ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. وكقوله: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرِيْبٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاطِئَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَثِرُ نَجْمٌ مَعْلَمَةٌ وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبٍ بَطَرَتْ مَعِيْشَتَهَا فَبَالَتْ سَكِينُهُمْ لَوْ تَشْكَنُ مِنْ بَدِيْهِ إِلَّا قَلِيْلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصاص: ٥٨]. وقوله: ﴿فَبَاءَهَا بِأَسْنَا بِيْنَا أَوْ هُمْ قَابِلُونَ﴾ أى فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته بيئات أى ليلاً، أو هم قاتلون من القيلولة وهى الاستراحة وسط النهار، وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو، كما قال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بِيْنَا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا سُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٨] وقال: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخَيْفَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْأَرْضِ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَحَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النمل: ٤٥-٤٧].

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٥) أي فما كان قولهم عند مجيء العذاب، إلا أن اعترفوا بذنوبهم وأنهم حقيقون بهذا، كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرِيحٍ كَانَتْ ظِلْمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ فَلَمَّا أَحْسُوا بِأَسْنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْتَلُونَ قَالُوا يَبُولْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَسِيدًا خَائِدِينَ ﴿[الأنبياء: ١١-١٥] قال ابن جرير (١): في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ من قوله: «ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم»، حدثنا بذلك ابن حميد، حدثنا جرير عن أبي ستان عن عبد الملك بن ميسرة الزراد، قال: قال عبد الله بن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم»، قال: قلت لعبد الملك: كيف يكون ذلك؟ قال: فقرأ هذه الآية ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٥).

وقوله: ﴿فَلَنَسْتَكَنَّ الَّذِينَ أُتْرِيبَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية، كقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَرْسَلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩] فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالاته، ولهذا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: ﴿فَلَنَسْتَكَنَّ الَّذِينَ أُتْرِيبَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَكَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٦) قال: عما بلغوا.

وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن الحسن، حدثنا أبو سعيد الكندي، حدثنا المحاربي عن ليث عن نافع عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام يسأل عن رعيته، والرجل يسأل عن أهله والمرأة تسأل عن بيت زوجها، والعبد يسأل عن مال سيده» قال الليث: وحدثني ابن طاوس مثله، ثم قرأ ﴿فَلَنَسْتَكَنَّ الَّذِينَ أُتْرِيبَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَكَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٦) وهذا الحديث مخرج في الصحيحين (٧) بدون هذه الزيادة، وقال ابن عباس في قوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَكْفُرُ لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ولا يغفل عن شيء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا بِعِلْمِهَا وَلَا حَبَّةٌ مِنْ الْأَمْزِجِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ﴾ أي للأعمال يوم القيامة ﴿الْحَقُّ﴾ أي لا يظلم تعالى أحداً كقوله: ﴿وَضَعَّ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ

(١) رواه الطبري (١٢٠/٨) عن ابن مسعود، انظر (عون المعبود) (٣٣٦/١١).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٨٩٣)، ومسلم برقم (١٨٢٩)، والترمذي، حديث (١٧٠٥) عن ابن عمر.

أَجْرًا عَظِيمًا» [النساء: ٤٠] وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ نَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ نَارُ حَامِيَةٍ» [القارعة: ٦-١١] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا فُتِحَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ فَمَنْ نَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدِينَ» [المؤمنون: ١٠١-١٠٣]

(فصل): والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل: الأعمال، وإن كانت أعراضًا إلا أن الله تعالى يقبلها يوم القيامة أجسامًا، قال البغوي: يروى نحو هذا عن ابن عباس، كما جاء في الصحيح<sup>(١)</sup> من أن البقرة وآل عمران يأتیان يوم القيامة كأنهما غماتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف. ومن ذلك في الصحيح<sup>(٢)</sup> قصة القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذي أسهرت ليلك وأظلمات نهارك. وفي حديث البراء<sup>(٣)</sup> في قصة سؤال القبر «فيأتي المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عمك الصالح»، وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق، وقيل: يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة في الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلًا كل سجل مد البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها: لا إله إلا الله فيقول: يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى: إنك لا تظلم، فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان، قال رسول الله ﷺ: «فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» رواه الترمذي<sup>(٤)</sup> بنحو من هذا وصححه، وقيل يوزن صاحب العمل كما في الحديث<sup>(٥)</sup> «يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة» ثم قرأ ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]، وفي مناقب عبد الله بن مسعود: أن النبي ﷺ قال: «أتعجبون من دقة ساقيه؟ والذي نفسى بيده لهما في الميزان أثقل من أحد»<sup>(٦)</sup> وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحًا، فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن محالها وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى: ممتنًا على عبده فيما مكن لهم، من أنه جعل الأرض قرارًا وجعل فيها رواسي وأنهارًا، وجعل لهم فيها منازل وبيوتًا وأبواب لهم منافعها، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها معاش أي مكاسب وأسبابًا يكسبون بها ويتجرون فيها ويتسببون أنواع الأسباب وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك كقوله ﴿وإن تَسُدُّوا أَنفُسَكُمْ لَا تَحْمِلُوهَا إِنَّكُمُ الْإِنسَانُ لَقَلِيلٌ مِّنْ دَاكِرٍ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وقد قرأ الجميع «معاش» بلا همز إلا عبد الرحمن بن هرم الأعرج فإنه همزها والصواب الذي عليه الأكثر بلا همز؛ لأن معاش جمع معيشة من عاش يعيش عيشًا ومعيشة أصلها

- (١) أخرجه مسلم حديث (٨٠٤)، وأحمد حديث (٢١٦٤٢)، عن أبي أمامة.
- (٢) أخرجه ابن ماجه (٣٧٨١)، وأحمد (٢٢٤٦٧)، عن ابن بريده عن أبيه.
- (٣) أخرجه أبو داود، حديث (٤٧٥٣)، وأحمد، حديث (١٨٠٦٣)، من حديث البراء.
- (٤) أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه حديث (٤٣٠٠)، وأحمد برقم (٦٩٥٥)، عن عبد الله بن عمرو.
- (٥) أخرجه البخاري برقم (٤٧٢٩)، ومسلم برقم (٢٧٨٥)، عن أبي هريرة.
- (٦) أخرجه أحمد (٣٩٨١)، عن ابن مسعود.

معيشة، فاستثقلت الكسرة على الياء فنقلت إلى العين فصارت معيشة، فلما جمعت رجعت الحركة إلى الياء؛ لزوال الاستثقال فقييل: معايش ووزنه مفاعل، لأن الياء أصلية في الكلمة بخلاف مدائن وصحائف وبصائر، جمع مدينة وصحيفة وبصيرة من مدن وصحف وأبصر، فإن الياء فيها زائدة، ولهذا تجتمع على فعائل وتهمز لذلك، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾

يبنه تعالى بنى آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم، ويبين لهم عداوة عدوهم إبليس، وما هو منطوق عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم؛ ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَنْشُورٍ فَاذْأَسْوَيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨-٣٠] وذلك أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب وصوره بشرًا سويًا ونفخ فيه من روحه، أمر الملائكة بالسجود له تعظيمًا لشأن الله تعالى وجلاله، فسمعوا كلهم وأطاعوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين، وقد تقدم الكلام على إبليس في أول تفسير سورة البقرة، وهذا الذي قررناه هو اختيار ابن جرير، أن المراد بذلك كله آدم عليه السلام. وقال سفيان الثوري عن الأعمش عن منهال بن عمرو عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ قال: خلقوا في أصلاب الرجال وصوروا في أرحام النساء، رواه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه، ونقل ابن جرير عن بعض السلف أيضًا أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم الذرية.

وقال الربيع بن أنس والسدي وقناة والضحاك في هذه الآية ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي خلقنا آدم ثم صورنا الذرية، وهذا فيه نظر، لأنه قال بعد ذلك: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ فدل على أن المراد بذلك آدم وإنما قيل ذلك بالجمع، لأنه أبو البشر، كما يقول الله تعالى لبنى إسرائيل الذين كانوا في زمن النبي ﷺ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ أَلْغَمًا وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾ [البقرة: ٥٧] والمراد آبائهم الذين كانوا في زمن موسى، ولكن لما كان ذلك منة على الآباء الذين هم أصل، صار كأنه واقع على الأبناء، وهذا بخلاف قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَ السُّلَالَةِ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ الآية [المؤمنون: ١٢-١٣]، فإن المراد من آدم المخلوق من السلالة، وذريته مخلوقون من نطفة، وصح هذا لأن المراد من خلقنا الإنسان الجنس لا معيّنًا، والله أعلم.

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا أَنْتَ إِذْ أَمَرْتَهُ أَنْ يَسْجُدَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

قال بعض النحاة في توجيه قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا أَنْتَ إِذْ أَمَرْتَهُ أَنْ يَسْجُدَ﴾ لا هنا زائدة، وقال بعضهم زيدت لتأكيد الجحد، كقول الشاعر:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله

فأدخل «إن» وهي للنفي على ما النافية لتأكيد النفي، قالوا: وكذا ههنا ﴿مَا مَنَّكَ إِلَّا أَنْتَ﴾ مع تقدم

قوله: ﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١] حكاهما ابن جرير ورددتهما، واختار أن منعه مضمن معنى

فعل آخر، تقديره ما أخرجك وألزمتك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك ونحو هذا، وهذا القول قوى حسن، والله أعلم.

وقول إبليس لعنه الله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ من العذر الذي هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضل، يعنى -لعنه الله- وأنا خير منه فكيف تأمرنى بالسجود له؟ ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين، فنظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً فى مقابلة نص قوله تعالى: ﴿فَقَوْمًا لَّهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢] فشذ من بين الملائكة لترك السجود فلهذا أبلس من الرحمة أى أيس من الرحمة، فأخطأ قبحه الله فى قياسه، ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضاً، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والثبت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة، ولهذا خان إبليس عنصره ونفع آدم عنصره بالرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة.

وفى صحيح مسلم<sup>(١)</sup> عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من مارح من نار، وخلق آدم مما وصف لكم» هكذا رواه مسلم، وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن مسعود، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا عبد الهزاق عن معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله الملائكة من نور العرش وخلق الجان من مارح من نار وخلق آدم مما وصف لكم» قلت لنعيم بن حماد: أين سمعت هذا من عبد الرزاق؟ قال: باليمن، وفى بعض ألفاظ هذا الحديث فى غير الصحيح «وخلقت المحور العين من الزعفران»، وقال ابن جرير: حدثنا القاسم حدثنا الحسين، حدثنا محمد بن كثير عن ابن شوذب عن مطر الوراق عن الحسن فى قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ قال: قاس إبليس وهو أول من قاس، إسناده صحيح، وقال: حدثنى عمرو بن مالك، حدثنى يحيى بن سليم الطائفى عن هشام بن ابن سيرين، قال: أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس، إسناده صحيح أيضاً.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٨﴾﴾

يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمر قدرى كونه: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ أى بسبب عصيانك لأمرى وخروجك عن طاعى فما يكون لك أن تتكبر فيها، قال كثير من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة، ويحتمل أن يكون عائداً إلى المنزل التي هو فيها فى الملكوت الأعلى ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أى الذليلين الحقيرين، معاملته له بنقيض قصده ومكافأة لمراده بضده، فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين، قال: ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشية التي لا تخالف ولا تمنع، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب.

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٦)، وأحمد (٢٤٦٦٨)، عن عائشة رضى الله عنها.

﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَكُمْ مِرْطَكَ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأَنْتَهُنَّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه لما أنذر إبليس ﴿إِنَّ يَوْمَ يَكْفُرُونَ﴾ [الانعام: ١٤] واستوثق إبليس بذلك، أخذ في المعاندة والتمرد، فقال: ﴿فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَكُمْ مِرْطَكَ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي كما أغويتني، قال ابن عباس: كما أضللتني، وقال غيره: كما أهلكتنى لأقعدن لعبادك الذين تخلفهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه على ﴿مِرْطَكَ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي طريق الحق وسبيل النجاة، لأضلنهم عنها لثلا يعبدوك ولا يوحّدوك بسبب إضلالك إياي، وقال بعض النحاة: الباء هنا قسمية كأنه يقول: فبإغوائك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم، قال مجاهد: صراطك المستقيم يعنى الحق، وقال محمد بن سوقة عن عون بن عبد الله: يعنى طريق مكة، قال ابن جرير: الصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك.

(قُلْتُ): لما روى الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا أبو عقيل يعنى الثقفى عبد الله بن عقيل، حدثنا موسى بن المسيب، أخبرنى سالم بن أبى الجعد، عن سبرة بن أبى الفاكه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك قال: فعصاه وأسلم» قال: «وقعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماؤك وإنما مثل المهاجر كالفارس فى الطول؟ فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس والمال، فقال: تقاتل فتقتل فتُنكح المرأة ويقسم المال؟ قال: فعصاه وجاهد». وقال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة أو وقصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة» وقوله: ﴿ثُمَّ لَأَنْتَهُنَّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية، قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿ثُمَّ لَأَنْتَهُنَّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: أشككهم فى آخرتهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أرغبهم فى دنياهم ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ أشبه عليهم أمر دينهم ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ أشهى لهم المعاصى.

وقال ابن أبى طلحة فى رواية العوفى كلاهما عن ابن عباس: أما من بين أيديهم فمن قبل دنياهم، وأما من خلفهم فأمر آخرتهم، وأما عن إيمانهم فمن قبل حسناتهم، وأما عن شمائلهم فمن قبل سيئاتهم، وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة: أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار، ومن خلفهم من أمر الدنيا فزينها لهم ودعاهم إليها، وعن إيمانهم من قبل حسناتهم بطأهم عنها، وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصى ودعاهم إليها وأمرهم بها، أتاك يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله، وكذا روى عن إبراهيم النخعى والحكم بن عتيبة والسدى وابن جريج، إلا أنهم قالوا: من بين أيديهم الدنيا، ومن خلفهم الآخرة.

وقال مجاهد: من بين أيديهم وعن إيمانهم من حيث يبصرون، ومن خلفهم وعن شمائلهم حيث لا يبصرون، واختار ابن جرير: أن المراد جميع طرق الخير والشر، فالخير يصددهم عنه والشر يحسنه لهم، وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله: ﴿ثُمَّ لَأَنْتَهُنَّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ

(١) أخرجه النسائي (٣١٣٤)، وأحمد حديث (١٥٥٢٨) عن سبرة بن أبى فاكه.

أَيَسْتَبِيهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴿١٠﴾ ولم يقل من فوقهم، لأن الرحمة تنزل من فوقهم، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَكِيرِينَ﴾ قال: موحدين، وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم، وقد وافق في هذا الواقع، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ حَافِظٌ﴾ [سبا: ٢٠-٢١]؛ ولهذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها، كما قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا نصر بن علي، حدثنا عمرو بن مجمع، عن يونس بن خباب عن ابن جبير بن مطعم يعني نافع بن جبير، عن ابن عباس. وحدثنا عمر بن الخطاب يعني السجستاني، حدثنا عبيد الله بن جعفر، حدثنا عبد الله بن عمرو عن زيد بن أبي أنيسة، عن يونس بن خباب عن ابن جبير بن مطعم، عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: «اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بك اللهم أن أغتال من تحتي» تفرد به البزار وحسنه (١).

وقال الإمام أحمد (٢): حدثنا وكيع، حدثنا عبادة بن مسلم الفزاري، حدثني جرير بن أبي سليمان بن جبير بن مطعم، سمعت عبد الله بن عمر يقول: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي»، قال وكيع: من تحتي يعني: الخسف.

ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبادة بن مسلم به، وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

﴿قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَّنْذُورًا لَّمَّا نَزَلَ مِنْهَا لَمَّا نَزَلَ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١١﴾

أكد تعالى عليه اللعنة والطرود والإبعاد والنفي عن محل الملا الأعلى، بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَّنْذُورًا﴾ قال ابن جرير: أما المذموم فهو المعيب، والذام غير مشدد: العيب يقال: ذامه يذامه ذامًا فهو مذموم، ويتركون الهمزة فيقولون: ذمته أذيمه ذيمًا وذامًا، والذام والذيم أبلغ في العيب من الذم، قال: والمدحور المقصي، وهو المبعد المطرود.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما نعرف المذموم والمذموم إلا واحدًا.

وقال سفيان الثوري: عن أبي إسحاق عن التميمي عن ابن عباس: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَّنْذُورًا﴾ قال: مقبيًا، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: صغيرًا مقبيًا: وقال السدي: مقبيًا مطرودًا، وقال قتادة: لعيبًا مقبيًا، وقال مجاهد: منفيًا مطرودًا. وقال الربيع بن أنس: مذمومًا منفيًا والمدحور المصفر.

(١) أورده الهيثمي في المجمع (١٧٥/١٠) عن ابن عباس وقال: رواه البزار وفيه يونس بن حبان وهو ضعيف.  
(٢) أخرجه أبو داود برقم (٥٠٧٤)، وابن ماجه برقم (٣٨٧١)، والنسائي (٥٥٢٩)، (٥٥٣٠) وأحمد برقم (٤٧٧٠) عن ابن عمر.

وقوله تعالى: ﴿لَنْ نَعْمَكَ مِنْهُمْ لِأَمَلَانَ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمِينَ﴾ كقوله: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً تَوْفِيرًا وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَقَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَلَيْلِبَ عَلَيْهِمْ بِصِيْلِكَ وَرَجِيْلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعْدهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ .

﴿وَبَقَادُمْ أَسْكُنَ أَنْتَ وَرَزَوَجِكَ الْجَنَّةَ فَكَلَّا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿١٢﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿١٣﴾﴾

يذكر تعالى أنه أباح لآدم عليه السلام ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة، وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة، فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى في المكر والوسوسة والخديعة، ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن و﴿قَالَ﴾ كذبًا وافتراء ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ﴾ أي لثلا تكونا ملكين أو خالدين ههنا، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما، كقوله: ﴿قَالَ يَتَّادُمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] أي لثلا تكونا ملكين، كقوله: ﴿يَبِيْنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضَلُّوْا﴾ [النساء: ١٧٦] أي لثلا تضلوا ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ يَبْسُجَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] أي لثلا تميد بكم، وكان ابن عباس ويحيى بن أبي كثير يقرآن ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ﴾ بكسر اللام، وقرأه الجمهور بفتحها، ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أي حلف لهما بالله ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ فإني من قبلكما ههنا وأعلم بهذا المكان، وهذا من باب المفاعلة، والمراد أحد الطرفين، كما قال خالد بن زهير ابن عم أبي ذؤيب:

وقاسمهم بالله جهداً لأنتم ألد من السلوى إذ ما نشورها

أي حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله، وقال قتادة في الآية: حلف بالله إنى خلقت قبلكما وأنا أعلم منكم فاتبعانى أُرشدكما، وكان بعض أهل العلم يقول: من خدعنا بالله انخدعنا له .

﴿فَدَلَّهُمَا يَفْرُورًا فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤﴾ قَالَ رَبَّنَا طَلَعْنَا نَافْسَنَا وَإِنْ لَمْ نَفْعِرْ لَنَا وَتَرَحَّمْنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥﴾﴾

قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبي بن كعب رضى الله عنه، قال: كان آدم رجلاً طوالاً كأنه نخلة سحق، كثير شعر الرأس، فلما وقع فيما وقع به من الخطيئة، بدت له عورته عند ذلك وكان لا يراها، فانطلق هارباً فى الجنة فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة، فقال لها: أرسلينى . فقالت: إنى غير مرسلتك، فناداه ربه عز وجل: يا آدم أمنى تفر؟ قال: يا رب إنى استحيتك، وقد رواه ابن جرير<sup>(١)</sup> وابن مردويه من طرق، عن الحسن عن أبي بن كعب عن النبى ﷺ مرفوعاً،

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤٣/٨) عن أبي بن كعب .

والموقوف أصح إسنادًا. وقال عبد الرزاق (١): أنبأنا سفيان بن عيينة وابن المبارك، عن الحسن بن عمارة، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كانت الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته السنبلية، فلما أكلتا منها بدت لهما سواتهما، وكان الذي وارى عنهما من سواتهما أظفارهما ﴿وَوَيْفًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا يَنْزِقُ مِنْهُ يَنْزِيلًا مِنْ رُبِّ الْجَنَّةِ﴾ وورق التين يلزقان بعضه إلى بعض، فانطلق آدم عليه السلام موليًا في الجنة، فعلق برأسه شجرة من الجنة، فناداه الله: يا آدم أمني تفر؟ قال: لا ولكنني استحييتك يا رب، قال: أما كان لك فيما منحتك من الجنة وأبحتك منها مندوحة عما حرمت عليك، قال: بلى يا رب ولكن وعزتك ما حسبت أن أحدًا يحلف بك كاذبًا، قال: وهو قول الله عز وجل: ﴿وَأَسْمُهُمَا إِلَيَّ لَكُمَا لَيْنٌ الرَّحِيمِ﴾ [الأعراف: ٢١] قال: فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كدًا، قال: فأهبط من الجنة وكانا يأكلان منها رغدًا، فأهبط إلى غير رغد من طعام وشراب، فعلم صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وزرع ثم سقى حتى إذا بلغ حصد، ثم داسه ثم ذراه ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزه ثم أكله، فلم يبلغه حتى بلغ منه ما شاء الله أن يبلغ.

وقال الثوري: عن ابن أبي ليلي عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿وَوَيْفًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا يَنْزِقُ مِنْهُ يَنْزِيلًا﴾ قال: ورق التين، صحيح إليه. وقال مجاهد: جعلوا يخصفان عليهما من ورق الجنة، قال: كهيئة الثوب، وقال وهب بن منبه في قوله ﴿يَنْزِقُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾، قال: كان لباس آدم وحواء نورًا على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه ولا هذه عورة هذا، فلما أكلتا من الشجرة بدت لهما سواتهما، رواه ابن جرير بسند صحيح إليه، وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن قتادة، قال: قال آدم «أى رب أرايت إن تبت واستغفرت؟ قال: إذا أدخلك الجنة، وأما إبليس فلم يسأله التوبة وسأله النظرة، فأعطى كل واحد منهما الذي سأله، وقال ابن جرير (٢): حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا عباد بن العوام، عن سفيان بن الحسين عن يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أكل آدم من الشجرة، قيل له: لم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: حواء أمرتني، قال: فإني قد أعقبتها أن لا تحمل إلا كرمًا ولا تضع إلا كرمًا، قال: فرنت عند ذلك حواء، فقيل لها: الرنة عليك وعلى ولدك، وقال الضحاک بن مزاحم في قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنَّ لَنَا تَغْفِرًا لَنَا وَتَرْحَمًا لَنَا كُنَّا مِنَ الْخَائِرِينَ﴾: هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه.

﴿قَالَ أَهْبَطُوا مَعَكُمْ لِيَبْعِثَ عِدُوًّا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرًّا وَمَتَعًا إِنَّ جِبرِئِيلَ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾

قيل: المراد بالخطاب في ﴿أَهْبَطُوا﴾ آدم وحواء وإبليس والحية، ومنهم من لم يذكر الحية، والله أعلم، والعمدة في العداوة آدم وإبليس؛ ولهذا قال تعالى في سورة طه ﴿قُلْنَا أَهْبَطُوا مِنْهَا جِئِمًا﴾ الآية، وحواء تبع لآدم، والحية إن كان ذكرها صحيحًا فهي تبع لإبليس، وقد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط فيها كل منهم ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات، والله أعلم بصحتها، ولو كان في

(١) رواه الطبري (١٤٢/٨) عن ابن عباس من حديث عبد الرزاق.

(٢) رواه الطبري (١٤٤/٨) عن ابن عباس.

تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم أو دنياهم لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسوله ﷺ ، وقوله: ﴿وَلَوْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِنَّ جِئْنَا بِقُرْبَانٍ كَرِيمٍ﴾ أي قرار وأعمار مضروبة إلى آجال معلومة، قد جرى بها القلم وأحصاها القدر وسطرت في الكتاب الأول، وقال ابن عباس ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ القبور، وعنه قال: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ فوق الأرض وتحتها، رواهما ابن أبي حاتم، وقوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَرَبُّهَا تُحْرَجُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَبَيْنَا خَلَقْتَكُمْ وَفِيهَا نُيِّدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥] يخبر تعالى أنه جعل الأرض دارًا لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم، ومنها نشورهم ليوم القيامة، الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويجازى كلًّا بعمله.

﴿بَيْنَ يَدَيْ عَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَرِيشًا وَالْقَوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾

يَمْتَنُّ تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش، فاللباس ستر العورات وهى السوات، والرياش والريش: ما يتجمل به ظاهرًا، فالأول من الضروريات والريش من التكملات والزيادات، قال ابن جرير: الرياش فى كلام العرب: الأثاث وما ظهر من الثياب، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس وحكاه البخارى عنه: الرياش: المال وهكذا قال مجاهد وعروة بن الزبير والسدى والضحاك وغير واحد، وقال العوفى عن ابن عباس: الريش: اللباس والعيش والنعيم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرياش: الجمال.

وقال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا أصبغ عن أبى العلاء الشامى، قال: لبس أبو امامة ثوبًا جديدًا فلما بلغ ترقوته قال: الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى حياتى، ثم قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله ﷺ: «من استجد ثوبًا فلبسه فقال حين يبلغ ترقوته: الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى حياتى، ثم عمد إلى الثوب الخلق - أو ألقى - فتصدق به كان فى ذمة الله وفى جوار الله وفى كنف الله حيًا وميتًا» ورواه الترمذى وابن ماجه من رواية يزيد بن هارون عن أصبغ هو ابن زيد الجهنى، وقد وثقه يحيى بن معين وغيره، وشيخه أبو العلاء الشامى لا يعرف إلا بهذا الحديث، ولكن لم يخرج أحد، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد<sup>(٢)</sup> أيضًا: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا مختار بن نافع التمار عن أبى مطر، أنه رأى عليًا رضى الله عنه أتى غلامًا حدثًا فاشترى منه قميصًا بثلاثة دراهم ولبسه ما بين الرسغين إلى الكعبين، يقول حين لبسه: الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس وأوارى به عورتى، فقيل: هذا شئ ترويه عن نفسك أو عن النبى ﷺ؟ قال: هذا شئ سمعته من رسول الله ﷺ يقول عند الكسوة: «الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس وأوارى به عورتى»، وقوله تعالى: ﴿رِيشًا وَالْقَوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ قرأ بعضهم «ولباس - التقوى» بالنصب، وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء، و﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ خبره، واختلف المفسرون فى معناه، فقال عكرمة: يقال: هو ما يلبسه

(١) أخرجه أحمد برقم (٣٠٧)، عن أبى العلاء الشامى، والترمذى حديث (٣٥٦٠)، وابن ماجه برقم (٣٥٥٧).

(٢) أخرجه أحمد، حديث (١٣٥٨) من حديث محمد بن عبيد.

المتقون يوم القيامة، رواه ابن أبي حاتم، وقال زيد بن علي والسدى وقتادة وابن جرير: ولباس التقوى: الإيمان.

وقال العوفي عن ابن عباس: العمل الصالح، قال زياد بن عمرو عن ابن عباس: هو السميت الحسن في الوجه، وعن عروة بن الزبير: لباس التقوى: خشية الله، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ولباس التقوى يتقى الله فيوارى عورته فذاك لباس التقوى، وكل هذه متقاربة، ويؤيد ذلك الحديث الذي رواه ابن جرير<sup>(١)</sup> حيث قال: حدثني المثنى حدثنا إسحاق بن الحجاج، حدثني إسحاق بن إسماعيل عن سليمان بن أرقم عن الحسن قال: رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه على منبر رسول الله ﷺ عليه قميص فوهى محلول الزر، وسمعته يأمر بقتل الكلاب وينهى عن اللعب بالحمام، ثم قال: يا أيها الناس اتقوا الله في هذه السرائر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفس محمد بيده عمل أحد قط سرا إلا ألبسه الله رداء علانية، إن خيرا فخير وإن شرا فشر» ثم قرأ هذه الآية «وَرِثْنَا وَلْيَأْسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ» قال: السميت الحسن، هكذا رواه ابن جرير من رواية سليمان بن أرقم، وفيه ضعف، وقد روى الأئمة الشافعي وأحمد والبخاري في كتاب «الأدب» من طرق صحيحة عن الحسن البصري، أنه سمع أمير المؤمنين عثمان بن عفان يأمر بقتل الكلاب وذبح الحمام يوم الجمعة على المنبر، وأما المرفوع منه فقد روى الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير له شاهداً من وجه آخر حيث قال: حدثنا محمود بن محمد المروزي، ثنا حامد بن آدم المروزي، ثنا الفضل بن موسى، عن محمد بن عبيد الله العرزمي، عن سلمة بن كهيل، عن جندب بن سفيان، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أسرَّ عبدٌ سريرة إلا ألبسه الله رداءها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر».

﴿يَبْقَىٰ آدَمَ لَا يَفْنَأُكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرْتِكُم هُوَ وِقِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَحْتَسِبُونَ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

يحذر تعالى بنى آدم من إبليس وقبيله، مبيّناً لهم عداوته القديمة لأبى البشر آدم عليه السلام، فى سعيه فى إخراجهم من الجنة التى هى دار النعيم إلى دار التعب والعناء، والتسبب فى هتك عورته بعد ما كانت مستورة عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَنتُمْ لَكُمْ عُدُوٌّ يُبْغِى لِّلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿وَإِذَا قَالُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَةِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٥٢﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُم أَخَذُوا أَشْتَاتًا ﴿٥٣﴾ الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهم مُّهْتَدُونَ﴾

قال مجاهد: كان المشركون يطوفون بالبيت عراة يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا فتضع المرأة

(١) رواه الطبري (١٤٩/٨) من حديث سليمان بن أرقم عن الحسن.

على فرجها النسعة أو الشيء وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

فأنزل الله ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ الآية، قلت: كانت العرب ما عدا قريشاً لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش وهم الحمس يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسي ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يملكه أحد، ومن لم يجد ثوباً جديداً، ولا أعاره أحمسي ثوباً طاف عرباناً، وربما كانت امرأة فتطوف عريانة فتجعل على فرجها شيئاً ليستره بعض الستر فتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

وأكثر ما كان النساء يظفن عراة بالليل، وكان هذا شيئاً قد ابتدعه من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك فقال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ فقال تعالى رداً عليهم: ﴿قُلْ أَيُّ مَحْمَدٍ لِمَنْ ادعى ذلك﴾ إن الله لا يأمر بالفتحشة، أى هذا الذى تصنعونه فاحشة منكرة، والله لا يأمر بمثل ذلك ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى أتسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أى بالعدل والاستقامة ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أى أمركم بالاستقامة فى عبادته فى محالها، وهى متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله وما جاءوا به من الشرائع وبالإخلاص له فى عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين، أن يكون صواباً موافقاً للشرعية، وأن يكون خالصاً من الشرك.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ إلى قوله: ﴿الْفَلَاحَةُ﴾ اختلف فى معنى قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ فقال ابن أبى نجیح عن مجاهد ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: يحييكم بعد موتكم، وقال الحسن البصرى: كما بدأكم فى الدنيا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء، وقال قتادة: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قال: بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئاً ثم ذهبوا ثم يعيدهم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كما بدأكم أولاً كذلك يعيدكم آخرًا، واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير، وأيده بما رواه من حديث سفيان الثورى وشعبة بن الحجاج كلاهما عن المغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال: قام فىنا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً» ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين<sup>(١)</sup> من حديث شعبة، وفى صحيح البخارى أيضًا من حديث الثورى به.

وقال ورقاء بن إياس أبو يزيد عن مجاهد ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قال: يبعث المسلم مسلمًا والكافر كافرًا. وقال أبو العالية ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ رداً إلى علمه فىهم. وقال سعيد بن جبیر ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ كما كتب عليكم تكونون، وفى رواية كما كنتم عليه تكونون، وقال محمد بن كعب القرظى فى قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: من ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه وإن

(١) أخرجه البخارى (٤٦٢٥)، ومسلم، برقم (٢٨٦٠)، والترمذى برقم (٣١٦٧)، والنسائى حديث (٢٠٨٧).

عمل بأعمال أهل السعادة، ومن ابتدا خلقه على السعادة صار إلى ما ابتدئ خلقه عليه وإن عمل بأعمال أهل الشقاء، كما أن السحرة عملوا بأعمال أهل الشقاء ثم صاروا إلى ما ابتدءوا عليه، وقال السدي ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَوَدُونَ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾: يقول: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَوَدُونَ﴾ كما خلقناكم فريق مهتدون وفريق ضلال، كذلك تعودون وتخرجون من بطون أمهاتكم.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَوَدُونَ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ قال: إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كَافِرًا وَنُكِرَ مُؤْمِنًا﴾ [التغابن: ٢] ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأهم مؤمناً وكافراً: قلت: ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري «فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة». وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا علي بن الجعد، حدثنا أبو غسان عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنه ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، وإنما الأعمال بالخواتيم» هذا قطعة من حديث رواه البخاري من حديث أبي غسان محمد بن مطرف المدني في قصة قرمان يوم أحد.

وقال ابن جرير (١): حدثني ابن بشار حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر، عن النبي ﷺ أنه قال: «تبعث كل نفس على ما كانت عليه» وهذا الحديث رواه مسلم وابن ماجه (٢) من غير وجه عن الأعمش به، ولفظه «يبعث كل عبد على ما مات عليه»، قلت: ويتأيد بحديث ابن مسعود، قلت: ولا بد من الجمع بين هذا القول إن كان هو المراد من الآية، وبين قوله تعالى: ﴿فَأَقْوَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] وما جاء في الصحيحين (٣) عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه».

وفي صحيح مسلم (٤) عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم» الحديث، ووجه الجمع على هذا: أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر في ثانی الحال، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده والعلم بأنه لا إله غيره، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك وجعله في غرائزهم وفطرتهم ومع هذا قدر أن منهم شقياً ومنهم سعيداً ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كَافِرًا وَنُكِرَ مُؤْمِنًا﴾ [التغابن: ٢] وفي الحديث (٥) «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»، وقد رآه نافذ في بريته، فإنه هو ﴿وَالَّذِي

(١) رواه الطبري (١٥٧/٨) عن جابر عن النبي ﷺ.  
 (٢) أخرجه مسلم، حديث (١٨٧٨)، وأحمد برقم (١٤١٣٤) من حديث الأعمش عن جابر.  
 (٣) أخرجه البخاري برقم (١٣٨٥)، ومسلم برقم (٢٦٥٨) عن أبي هريرة.  
 (٤) أخرجه مسلم برقم (٢٨٦٥)، عن عياض بن حمار المجاشعي، وأحمد حديث (١٧٠٣٠).  
 (٥) أخرجه مسلم (٢٢٣) عن أبي مالك الأشعري، والترمذي (٣٥١٧)، وابن ماجه (٢٨٠)، وأحمد (٢٢٣٩٥).

فَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿[الأملى: ٣]﴾ وَالَّذِي أَطْعَمَهُ لَمَّا ضَلَّ سَبِيلَهُ فَأُخْرِجَهُ مِنَ الْوَادِي الْأَعْرَابِ فَأَتَىٰ هَدْيًا ﴿[طه: ٥٠]﴾ وَفِي الصَّحِيحِينَ <sup>(١)</sup> «فَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيَسِيرٌ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَيَسِيرٌ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ» ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ ثم علل ذلك فقال: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا أَشْيَاطِينَ أُوتِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية، قال ابن جرير: وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحدًا على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها، فيركبها عنادًا منه لربه فيها، لأنه لو كان كذلك لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل وهو يحسب أنه هادي، وفريق الهدى فرق، وقد فرق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية.

﴿يَبْنِي عَادَمَ خُدُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ هذه الآية الكريمة رد على المشركين فيما كانوا يمتدونه من الطواف بالبيت عراة كما، رواه مسلم والنسائي وابن جرير <sup>(٢)</sup>، واللفظ له من حديث شعبة عن سلمة بن كهيل عن مسلم البطين عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء، الرجال بالنهار والنساء بالليل، وكانت المرأة تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

فقال الله تعالى: ﴿خُدُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وقال العوفي: عن ابن عباس في قوله: ﴿خُدُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الآية، قال: كان رجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله بالزينة، والزينة اللباس، وهو ما يوارى السوءة وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع، فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد، هكذا قال مجاهد وعطاء وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبيرة وقتادة والسدي والضحاك مالك، عن الزهري وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها: أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت عراة، وقد روى الحافظ بن مردويه من حديث سعيد بن بشير والأوزاعي عن قتادة، عن أنس مرفوعًا <sup>(٣)</sup>، أنها نزلت في الصلاة في النحال، ولكن في صحته نظر، والله أعلم، ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنة يستحب التجمل عند الصلاة، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب؛ لأنه من الزينة والسواك؛ لأنه من تمام ذلك؛ ومن أفضل اللباس البياض، كما قال الإمام أحمد <sup>(٤)</sup>: حدثنا علي بن عاصم، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم، وإن من خير أحوالكم الإثم فإنه يجعلو البصر وينبت الشعر» هذا حديث جيد الإسناد، رجاله على شرط مسلم، ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه <sup>(٥)</sup> من حديث عبد الله بن عثمان بن خثيم به، وقال الترمذي: حسن صحيح،

(١) أخرجه البخاري برقم (١٣٦٢)، ومسلم برقم (٢٦٤٧)، عن علي رضي الله عنه، وأبو داود برقم (٤٦٩٤)، والترمذي برقم (٣٣٤٤).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٣٠٢٨)، والنسائي برقم (٢٩٥٦)، وابن جرير (١٦٠/٨) عن ابن عباس.

(٣) رواه العقيلي في ضغفاته (١٤٢/٣) حديث (١١٢٦) عن قتادة عن أنس وفي إسناده عباد بن جويرية: قال أحمد: كذاب.

(٤) مسند أحمد (٢٢٢٠).

(٥) أخرجه أبو داود برقم (٣٨٧٨)، والترمذي برقم (٩٩٤)، وابن ماجه برقم (١٤٧٢) من حديث عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد عن ابن عباس.

وللإمام أحمد أيضًا وأهل السنن<sup>(١)</sup> بإسناد جيد عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بثياب البياض فالبسوها فإنها أطهر وأطيب وكفنوا فيها موتاكم» وروى الطبراني بسند صحيح عن قتادة عن محمد بن سيرين أن تميمًا الداري اشترى رداءً بألف وكان يصلي فيه، وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ الآية، قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ وقال البخاري: قال ابن عباس: كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال: أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفًا أو مخيلة، إسناده صحيح، وقال الإمام أحمد<sup>(٢)</sup>: حدثنا بهز، حدثنا همام عن قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده» ورواه النسائي وابن ماجه من حديث قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «كلوا وتصدقوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة» وقال الإمام أحمد<sup>(٣)</sup>: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا سليمان بن سليم الكناني، حدثنا يحيى بن جابر الطائي سمعت المقدم بن معديكرب الكندي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان فاعلاً لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» ورواه النسائي والترمذي<sup>(٤)</sup> من طرق عن يحيى بن جابر به، وقال الترمذي: حسن، وفي نسخة: حسن صحيح.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده<sup>(٥)</sup>: حدثنا سويد بن عبد العزيز، حدثنا بقية عن يوسف بن أبي كثير عن نوح بن ذكوان عن الحسن عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من السرف أن تأكل كل ما اشتيت» ورواه الدارقطني في الأفراد، وقال: هذا حديث غريب تفرد به بقية، وقال السدي: كان الذين يطوفون بالبيت عراة يحرمون عليهم الودك ما أقاموا في الموسم، فقال الله تعالى لهم: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ الآية، يقول: لا تسرفوا في التحريم، وقال مجاهد: أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم الله، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾: يقول: ولا تأكلوا حراماً ذلك الإسراف، وقال عطاء الخراساني: عن ابن عباس قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾: في الطعام والشراب.

وقال ابن جرير: وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ حده في حلال أو حرام الغالين فيما أحل أو حرم بإحلال الحرام أو بتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يحلل ما أحل ويحرم ما حرم، وذلك العدل الذي أمر به.

(١) أخرجه أحمد (١٩٦٢٧)، والنسائي (٥٣٢٢). (٢) سبق تخريجه.

(٣) أحمد (١٦٧٣٥).

(٤) الترمذي (٢٣٨٠)، والنسائي في الكبرى (١٧٧/٤) برقم (٦٧٦٩).

(٥) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٥٤/٥) حديث (٢٧٦٥). وأخرجه ابن ماجه (٣٣٥٢) من طريق بقية عن يوسف بن أبي كثير به. قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٣١/٤): هذا إسناد ضعيف.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى رداً على من حرم شيئاً من المأكّل أو المشارب أو الملابس من تلقاء نفسه من غير شرع من الله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين، الذين يحرمون ما يحرمون بأرائهم الفاسدة وابتداعهم: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ الآية، أى هى مخلوقة لمن آمن بالله وعبده فى الحياة الدنيا، وإن شركهم فيها الكفار حساً فى الدنيا فهى لهم خاصة يوم القيامة، ولا يشركهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنة محرمة على الكافرين: قال أبو القاسم الطبراني<sup>(١)</sup>: حدثنا أبو حصين محمد بن الحسين القاضى، حدثنا يحيى الحماني، حدثنا يعقوب القمى عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون، فأنزل الله ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ فأمروا بالثياب.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قال الإمام أحمد<sup>(٢)</sup>: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغبر من الله؛ فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله» أخرجاه فى الصحيحين<sup>(٣)</sup> من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن شقيق عن أبى وائل عن عبد الله بن مسعود، وتقدم الكلام على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن فى سورة الأنعام. وقوله: ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قال السدى: أما الإثم فالمعصية والبغى أن تبغى على الناس بغير الحق، وقال مجاهد:، الإثم المعاصى كلها، وأخبر أن الباغى بغية كائن على نفسه، وحاصل ما فسر به الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، والبغى هو التعدى إلى الناس، فحرم الله هذا وهذا، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أى تجعلوا له شركاء فى عبادته ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولداً ونحو ذلك مما لا علم لكم به، كقوله: ﴿فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُفْنَةَ اللَّهِ عَيْرٌ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ الآية [الحج: ٣٠-٣١].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَفِيدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ يَبْقَى هَادِمٌ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَا يَنْبَغِي فَمَنْ أَتَقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٤﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أى قرن وجيل ﴿أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ أى ميقاتهم المقدر لهم ﴿لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً﴾ عن ذلك ﴿وَلَا يَسْتَفِيدُونَ﴾ ثم أنذر تعالى بنى آدم أنه سيعث إليهم رسلاً يقصون عليهم

(١) رواه الطبراني فى الكبير (١٣/١٢) حديث (١٢٣٢٤)، عن ابن عباس، وقال الهيثمي فى المجمع (٢٣/٧): رواه الطبراني وفيه يحيى الحماني وهو ضعيف.

(٢) أحمد (٣٦٠٥).

(٣) البخاري (٥٢٢٠)، ومسلم (٢٧٦٠)، والترمذي (٣٥٣٠).

آياته وبشر وحذر، فقال: ﴿فَمَنْ أَنْقَرْنَا وَأَصْلَحَ﴾ أى ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أى كذبت بها قلوبهم واستكبروا عن العمل بها ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أى ماكثون فيها مكثاً مخلداً.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أَُولَئِكَ يَتْلَوْنَ نَصِيحَتَهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَفَوَّنَهُمْ قَالُوا إِنَّا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا وَشْهِدُوا عَلَيَّ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أى لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله أو كذب بآياته المنزلة ﴿أُولَئِكَ يَتْلَوْنَ نَصِيحَتَهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ اختلف المفسرون فى معناه، فقال العوفى عن ابن عباس: ينالهم ما كتب عليهم، وكتب لمن يفترى على الله أن وجهه مسود، وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس يقول: نصيهم من الأعمال من عمل خيراً جزى به، ومن عمل شراً جزى به، وقال مجاهد: ما وعدوا به من خير وشر، وكذا قال قتادة والضحاك وغير واحد، واختاره ابن جرير.

وقال محمد بن كعب القرظى ﴿أُولَئِكَ يَتْلَوْنَ نَصِيحَتَهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ قال: عمله وورقه وعمره، وكذا قال الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهذا القول قوى فى المعنى، والسياق يدل عليه، وهو قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَفَوَّنَهُمْ﴾ ونظير المعنى فى هذه الآية كقوله: ﴿قُلْ إِنَّكَ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثَمَرًا إِنَّمَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ يُدْعَاهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩-٧٠] وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ إِنَّمَا مَرْجِعُهُمْ فَنُفِثُهم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ نُنِيعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [القمان: ٢٣-٢٤] الآية، وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَفَوَّنَهُمْ﴾ الآية، يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفرغهم عند الموت وقبض أرواحهم إلى النار يقولون لهم: أين الذين كنتم تشركون بهم فى الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله؟ ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه، قالوا: ﴿صَلُّوا عَلَيْنَا﴾ أى ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم ﴿وَشْهِدُوا عَلَيَّ أَنْفُسِهِمْ﴾ أى أقروا واعترفوا على أنفسهم ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَّا أُخْتًا حَتَّى إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرَجْنَاهُم لَإِنَّا هُنَّآ رِيسًا هُنَّآ أَصْلُونَا ففَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَقَالَتْ أُولُنَّهُمْ لِأَخْرَجْنَاهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُنَّا عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به، المفترين عليه المكذبين بآياته: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ أى من أشكالكم وعلى صفاتكم ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أى من الأمم السالفة الكافرة ﴿مِنَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ﴾ فى النار، يحتمل أن يكون بدلاً من قوله ﴿فِي أُمَمٍ﴾ ويحتمل أن يكون ﴿فِي أُمَمٍ﴾ أى مع أمم، وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَّا أُخْتًا﴾ كما قال الخليل عليه السلام: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ الآية [العنكبوت: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ أُتْمِعُوا مِنَ الذِّبْرِ مِنَ الذِّبْرِ اتَّبَعُوا

وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ أَنْجِئْنَا لَوْ أَنَّ كُرَّةً فَنَتَبَّرَإُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُهُ اللَّهُ اعْتَلَبَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿البقرة: ١٦٦-١٦٧﴾ .

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جِيَمًا﴾ أى اجتمعوا فيها كلهم ﴿وَقَالَتْ أَخْرِجْنَاهُ لِأَوْلَانِهِمْ﴾ أى أخواهم دخولاً، وهم الأتباع لأولاهم وهم المتبوعون، لأنهم أشد جرماً من أتباعهم فدخلوا قبلهم، فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة؛ لأنهم هم الذين أضلّوهم عن سواء السبيل فيقولون ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَجَاءَتْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ أى أضعف عليهم العقوبة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نُقَلِّبُ وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَا ضَعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَظِيمِ لَمَّا كَبُرْنَا﴾ الآية [الأحزاب: ٦٦-٦٨]، وقوله ﴿قَالَ لِكُلِّ فِيهَا ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى قد فعلنا ذلك وجازيناكلا بحسبه، كقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِذِ انبَغَتْ لَهُمْ أَعْيُنُهُمْ لِيَأْخُذُوا بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ يَأْسُفُونَ﴾ الآية [النحل: ٨٨]. وقوله: ﴿وَلِيَحْمِلُوا فِيهَا أَثْقَالَهُمْ وَأَتَّعَالُوا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ أَفْيِكُمْ وَعَنَّا كَانُوا يَقْرُؤُونَ﴾ [المنكوت: ١٣] وقوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيلُونَ﴾ الآية [النحل: ٢٥]، ﴿وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَإَخْرِجُهُمْ﴾ أى قال المتبوعون للأتباع: ﴿فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ قال السدى: فقد ضللتكم كما ضللنا ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وهذه الحال كما أخبر الله تعالى عنهم فى حال محشرهم فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْتُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا افْتَحُ صَدَدْنَاكَ عَنِ الْمُدَىٰ بَعْدَ إِذِ جَاءَكَ بِئِلَّا كُنْتُمْ تُجْرِمُونَ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذِ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرَأْنَا لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَبْطُلُ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجَزَّوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا بِمَعْلُومٍ﴾ [سبا: ٣١-٣٣].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٥﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٦﴾﴾

قوله: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ قيل: المراد لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء، قاله مجاهد وسعيد بن جبير، ورواه العوفى وعلى بن أبى طلحة عن ابن عباس، وكذا رواه الثورى عن ليث عن عطاء عن ابن عباس، وقيل: المراد لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء، رواه الضحاك عن ابن عباس، وقاله السدى وغير واحد، ويؤيده ما قاله ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن المنهال هو ابن عمرو، عن زاذان عن البراء أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر، وأنه يصعد بها إلى السماء فيصعدون بها، فلا تمر على ملا من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بأببح أسمائه التى كان يدعى بها فى الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء فيستفتحون بابها له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ الآية، هكذا رواه، وهو قطعة من حديث طويل رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه <sup>(١)</sup> من طرق عن المنهال بن عمرو به .

(١) أبو داود (٤٧٥٣)، والنسائى (٢٠٠١) وابن ماجه (١٥٤٩).

وقد رواه الإمام أحمد<sup>(١)</sup> بطوله فقال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن المنهال بن عمرو، عن زاذان عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتبهنا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رءوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعينوا بالله من عذاب القبر - مرتين أو ثلاثة ثم قال - : «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان» - قال - : «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السماء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفه عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون - يعني بها - على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى يتنهبوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدى في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى. قال: فتعاد روحه فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له: وما عملك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت، فينادى مناد من السماء: أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد البصر - قال - : ويأتيه رجل حسن الوجه وحسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد فيقول له: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير؟ فيقول: أنا عمك الصالح فيقول: رب أقم الساعة رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى - قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب.

قال: فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفه عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأن تن ریح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا يفتح له - ثم قرأ رسول الله ﷺ - ﴿لَا تَقْنَعُ لَمْ أَبْرَبُ السَّمَوَاتِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَنْئَةِ لِيَأْتِيَ﴾ فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً - ثم قرأ ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطُّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ﴾ [الحج: ٣١]

فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري فيقولان: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادى مناد من السماء: أن كذب عبدى فأفرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوؤك هذا يومك الذي كنت توعده، فيقول: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عمك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة».

وقال الإمام أحمد أيضاً<sup>(١)</sup>: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن يونس بن خباب عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة فذكر نحوه، وفيه: حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء، وفتحت له أبواب السماء ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله عز وجل أن يعرج بروحه من قبلهم، وفي آخره: ثم يقيض له أعمى أصم أبكم في يده مرزبة لو ضرب بها جبل كان تراباً، فيضربه ضربة فيصير تراباً ثم يعيده الله عز وجل كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعا كل شيء إلا الثقلين، قال البراء: ثم يفتح له باب من النار ويمهد له فرش من النار، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه وابن جرير<sup>(٢)</sup> واللفظ له من حديث محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس المطمئنة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فيقولون ذلك حتى يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فيقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل، وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج، فيقولون ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان فيقولون: لا مرحباً بالنفس الخبيثة التي كانت في الجسد الخبيث ارجعي ذميمة، فإنه لم يفتح لك أبواب السماء فترسل بين السماء والأرض فتصير إلى القبر».

وقد قال ابن جرير في قوله: ﴿لَا تَفْتَحْ لَهُمُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ لا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم، وهذا فيه جمع بين القولين، والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ هكذا قرأه الجمهور وفسروه بأنه البعير: قال ابن مسعود: هو الجمل ابن الناقة، وفي رواية: زوج الناقة. وقال الحسن البصري: حتى يدخل البعير في خرم الإبرة، وكذا قال أبو العالية والضحاك، وكذا روى علي بن أبي طلحة العوفي عن ابن عباس.

وقال مجاهد وعكرمة عن ابن عباس: إنه كان يقرؤها «حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ» بضم

(١) أحمد (١٨١٤٠).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٤٤٣/٦) برقم (١١٤٤٢)، وابن ماجه (٤٢٦٢) وأحمد حديث (٨٥٥١)، وابن جرير (١٧٧/٨).

الحجم وتشديد الميم يعنى: الحبل الغليظ فى خرم الإبرة، وهذا اختيار سعيد بن جبير، وفى رواية: أنه قرأ «حتى يلج الجمل» يعنى: قلوس السفن، وهى الحبال الغلاظ.

وقوله: ﴿لَمْ يَنْجِئْهُمْ يَهُودُ﴾ قال محمد بن كعب القرظى: ﴿لَمْ يَنْجِئْهُمْ يَهُودُ﴾ قال: الفرش. ﴿وَمَنْ فَوْقَهُمْ عَوَاشِرٌ﴾ قال: اللحف، وكذا قال الضحاک بن مزاحم والسدى ﴿وَكَذَلِكَ نَجْرِي الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٣﴾ وَزَعَنَّا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلِيٍّ نَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا لِلْحَمْدِ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولَنَا بِالْحَقِّ وَوَدُّوا أَنْ يَتْلَمَّكُمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء فقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى أمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ضد أولئك الذين كفروا بآيات الله واستكبروا عنها، وينبه تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل؛ لأنه تعالى قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَزَعَنَّا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلِيٍّ﴾ أى من حسد وبغض كما جاء فى صحيح البخارى <sup>(١)</sup> من حديث قتادة عن أبى المتوكل الناجى عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خلس المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فاقتص لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة فو الذى نفسى بيده إن أحدهم بمنزله فى الجنة أدل منه بمسكنه كان فى الدنيا» وقال السدى فى قوله: ﴿وَزَعَنَّا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلِيٍّ نَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الآية «إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة فى أصل ساقها عينان فشرىوا من إحداهما فيتزع ما فى صدورهم من غل فهو الشراب الطهور، واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعم فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعدها أبدًا، وقد روى أبو إسحاق عن عاصم عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب نحوًا من هذا كما سيأتى فى قوله تعالى: ﴿وَسَيَقَى الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣] إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان.

وقال قتادة: قال على رضى الله عنه: «إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَزَعَنَّا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلِيٍّ﴾ رواه ابن جرير، وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة عن إسرائيل قال: سمعت الحسن يقول: قال على: «فينا والله أهل بدر نزلت ﴿وَزَعَنَّا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلِيٍّ﴾ وروى النسائى <sup>(٢)</sup> وابن مردويه واللفظ له من حديث أبى بكر بن عياش عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هدانى فيكون له شكرًا، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هدانى فيكون له حسرة»، ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا أن تلمك الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون،

(١) أخرجه البخارى برقم (٢٤٤٠)، أحمد، حديث (١٠٧١١).

(٢) أخرجه النسائى (٤٤٧/٦)، حديث (١١٤٥٤)، وأحمد برقم (٥١٢/٢)، حديث (١٠٦٦٠).

وأورده الهيثمى فى المجمع (٣٩٩/١٠)، وقال: رواه كله أحمد، ورجال الرواية الأولى رجال الصحيح.

أى بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة وتبوأنم منازلكم بحسب أعمالكم . وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت فى الصحيحين <sup>(١)</sup> عنه ﷺ أنه قال : «واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة» قالوا : ولا أنت يا رسول الله قال : «ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل» .

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ بَيْنَهُمْ وَأَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

يخبر تعالى بما يخاطب به أهل النار على وجه التقرير والتوبيخ إذا استقروا فى منازلهم ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ أن ههنا مفسرة للقول المحذوف وقد للتحقيق أى قالوا لهم : ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ كما أخبر تعالى فى سورة الصافات من الذى كان له قرين من الكفار ﴿فَأَطَّلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرُونَ لَوْلَا رِغْمَةَ رَبِّى لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَضِرِينَ إِنَّمَا أَنتَ بِبَيْنَيْنِ إِلَّا مَوَازِنَ الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ﴾ [الصافات: ٥٥-٥٩] أى : ينكر عليه مقالته التى يقولها فى الدنيا ويقرعه بما صار إليه من العذاب والنكال ، وكذلك تفرعهم الملائكة يقولون لهم : ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَيْسَرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ أَصْلُوهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَصَلُّونَ﴾ [الطور: ١٤-١٦] وكذلك قرع رسول الله ﷺ قنلى القلب يوم بدر فنادى : «يا أبا جهل بن هشام ويا عتبة بن ربيعة ويا شيبة بن ربيعة - وسمى رءوسهم - هل وجدتم ما وعد ربكم حقا فانى وجدت ما وعدنى ربي حقا؟ وقال عمر : يا رسول الله تخاطب قوما قد جيفوا؟ فقال : «والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا» <sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿فَأَذَنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أى أعلم معلم ونادى مناد : ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أى مستقرة عليهم ثم وصفهم بقوله : ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أى يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء ، ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ أى وهم بلقاء الله فى الدار الآخرة كافرون أى جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به ؛ فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل ؛ لأنهم لا يخافون حسابا عليه ولا عقابا فهم شر الناس أقوالا وأعمالا .

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَرَوْنَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمَّا يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْفَاءً أَصْحَابُ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار نبه أن بين الجنة والنار حجابا وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة ، قال ابن جرير : وهو السور الذى قال الله تعالى فيه : ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ سُورًا لِمَّا بَالِغُكُمْ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَلَّهُمْ مِنْ بَيْنِكُمْ الْأَعْدَابُ﴾ [الحديد: ١٣] وهو الأعراف . الذى قال الله تعالى فيه : ﴿وَعَلَى

نصف  
الحزب

١٦

(١) أخرجه البخاري ، حديث (٥٦٧٣) . ومسلم (٢٨١٦) .

(٢) أخرجه مسلم حديث (٢٨٧٥) ، وابن حبان فى صحيحه (٤٥٨/١٤) حديث (٦٥٢٥) ، والنسائي (١٠٩/٤) حديث (٢٠٧٥) ، وأحمد فى مسنده (٢٦٣/٣) ، حديث (١٣٧٩٩) عن أنس بن مالك .

الْأَعْرَافِ يَجَالٌ» ثم روى بإسناده عن السدى أنه قال فى قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَهْمَتُنَّ الْجِبَابُ﴾: وهو السور وهو الأعراف. وقال مجاهد: الأعراف: حجاب بين الجنة والنار سور له باب، قال ابن جرير: والأعراف جمع عُرف، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفاً، وإنما قيل لعرف الديك عرفاً لارتفاعه. حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا ابن عيينة عن عبيد الله بن أبى يزيد، سمع ابن عباس يقول: الأعراف هو الشيء المشرف.

وقال الثورى عن جابر عن مجاهد عن ابن عباس قال: الأعراف سور كعرف الديك. وفى رواية عن ابن عباس: الأعراف تل بين الجنة والنار، حبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار، وفى رواية عنه: هو سور بين الجنة والنار. وكذا قال الضحاك وغير واحد من علماء التفسير.

وقال السدى: إنما سمي الأعراف أعرافاً؛ لأن أصحابه يعرفون الناس، واختلفت عبارات المفسرين فى أصحاب الأعراف من هم؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله.

وقد جاء فى حديث مرفوع رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه، حدثنا عبد الله بن إسماعيل حدثنا عبيد بن الحسين حدثنا سليمان بن داود حدثنا النعمان بن عبد السلام حدثنا شيخ لنا يقال له: أبو عباد عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر بن عبد الله قال: سئل رسول الله ﷺ عن استوت حسناته وسيئاته فقال: «أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون»<sup>(١)</sup> وهذا حديث غريب من هذا الوجه.

ورواه من وجه آخر عن سعيد بن سلمة بن أبى الحسام عن محمد بن المنكدر عن رجل من مزينة قال: سئل رسول الله ﷺ عن استوت حسناته وسيئاته فقال: «إنهم قوم خرجوا عصاة بغير إذن آبائهم فقتلوا فى سبيل الله» وقال سعيد بن منصور: حدثنا أبو معشر حدثنا يحيى بن شبيل عن يحيى بن عبد الرحمن للمزنى عن أبيه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف قال: «هم ناس قتلوا فى سبيل الله بمعصية آبائهم فمنعهم من دخول الجنة بمعصية آبائهم ومنعهم من النار قتلهم فى سبيل الله» وهكذا رواه ابن مردويه وابن جرير<sup>(٢)</sup> وابن أبى حاتم من طرق عن أبى معشر به، وكذا رواه ابن ماجه مرفوعاً من حديث أبى سعيد الخدرى وابن عباس، والله أعلم بصحة هذه الأخبار المرفوعة، وقصاراها أن تكون موقوفة وفيه دلالة على ما ذكر. وقال ابن جرير: حدثنى يعقوب حدثنا هشيم أخبرنا حصين عن الشعبي عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف قال: فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة وخلفت بهم حسناتهم عن النار، قال: فوقفوا هناك على السور حتى يقضى الله فيهم، وقد رواه من وجه آخر أبسط من هذا فقال: حدثنا ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح حدثنا يونس بن أبى إسحاق قال: قال الشعبي: أرسل إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن وعنده أبو

(١) رواه أبو نعيم فى مسند أبى حنيفة (٢٠٣/١) من طريق ابن عقيل عن جابر.

(٢) رواه الطبرى (١٩٣/٨) عن أبى معشر، وأورده الهيثمي فى المجمع (٢٣/٧) وقال: رواه الطبراني وفيه أبو معشر نجيب وهو ضعيف.

الزناد عبد الله ابن ذكوان مولى قريش فإذا هما قد ذكرا، من أصحاب الأعراف ذكرا ليس كما ذكرنا فقلت لهما: إن شئتما أنبأتكما بما ذكر حذيفة فقالا: هات، فقلت: إن حذيفة ذكر أصحاب الأعراف فقال: هم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَمْصَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربك فقال لهم: اذهبوا فادخوا الجنة فإنى قد غفرت لكم.

وقال عبد الله بن المبارك عن أبي بكر الهذلي قال: قال سعيد بن جبير وهو يحدث ذلك عن ابن مسعود قال: يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ثم قرأ قول الله: ﴿فَمَنْ تَقَلَّتْ مُوزِنُهُ﴾ [المؤمنون: ١٠٢] الآيتين، ثم قال: الميزان يخف بمثقال حبة، ويرجح. قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوققوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا: سلام عليكم وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم نظروا أهل النار ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ تعوذوا بالله من منازلهم قال: فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نوراً يمشون به بين أيديهم وبأيامانهم ويعطى كل عبد يومئذ نوراً، وكل أمة نوراً فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة، فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا: ﴿أَتَيْمٌ لَنَا تِوَرْنَا﴾ [التحریم: ٨] وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان بأيديهم فلم يتزع فهنالك يقول الله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَلْمِزُونَ﴾ فكان الطمع دخولاً.

قال: فقال ابن مسعود: إن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة ثم يقول: هلك من غلبت وحدانه عشراته. رواه ابن جرير وقال أيضاً: حدثني ابن وكيع وابن حميد قالوا: حدثنا جرير عن منصور عن حبيب بن أبي ثابت عن عبد الله بن الحارث عن ابن عباس قال: الأعراف السور الذى بين الجنة والنار وأصحاب الأعراف بذلك المكان حتى إذا بدأ الله أن يعافهم انطلق بهم إلى نهر يقال له: نهر الحياة حافته قصب الذهب مكلل باللؤلؤ ترابه المسك فآلقوا فيه حتى تصلح ألوانهم وتبدو فى نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها حتى إذا صلحت ألوانهم أتى بهم الرحمن تبارك وتعالى فقال: تمنوا ما شئتم، فيتمنون حتى إذا انقطعت أمنيتهم قال لهم: لكم الذى تمنيتم ومثله سبعون ضعفاً، فيدخلون الجنة وفى نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها يسمون مساكين أهل الجنة، وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن يحيى بن المغيرة عن جرير به، وقد رواه سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت عن مجاهد وعن عبد الله بن الحارث من قوله، وهذا أصح والله أعلم.

كذا روى عن مجاهد والضحاك وغير واحد. وقال سعيد بن داود: حدثني جرير عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن عمرو بن جرير قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف قال: «هم آخر من يفصل بينهم من العباد، فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال: أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ولم تدخلوا الجنة فأنتم عتقائى فارعوا من الجنة حيث شئتم»<sup>(١)</sup> وهذا مرسل حسن، وقيل: هم أولاد الزنا، حكاه القرطبي وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة الوليد بن موسى عن شيبه بن عثمان عن عروة بن رويم عن الحسن عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أن مؤمنى الجن لهم

(١) رواه الطبري (١٩٤/٨) عن أبي زرعة عن عمرو بن جرير.

ثواب وعليهم عقاب، فسألناه عن ثوابهم وعن مؤمنينهم فقال: «على الأعراف وليسوا في الجنة مع أمة محمد ﷺ» فسألناه وما الأعراف؟ فقال: «حائط الجنة تجرى فيه الأنهار وتنبت فيه الأشجار والشمار»<sup>(١)</sup> رواه البيهقي عن ابن بشران عن علي بن محمد المصري عن يوسف بن يزيد عن الوليد بن موسى به.

وقال سفيان الثوري: عن خصيف عن مجاهد قال: أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء، وقال ابن جرير، حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا بن علي عن سليمان التيمي عن أبي مجلز في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيَمَتِهِمْ﴾ قال: هم رجال من الملائكة يعرفون أهل الجنة وأهل النار قال: ﴿وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَنَعْلَمَ أَنَّكُمْ لَكُمْ لَدُنَّا وَمَنْ يَطْمَعُونَ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيَمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَعْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَهْلُؤَلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قال: فيقال حين يدخل أهل الجنة الجنة: ﴿أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ وهذا صحيح إلى أبي مجلز، لاحق بن حميد أحد التابعين، وهو غريب من قوله، وخلاف الظاهر من السياق وقول الجمهور مقدم على قوله بدلالة الآية على ما ذهبوا إليه، وكذا قول مجاهد: إنهم قوم صالحون علماء فقهاء فيه غرابة أيضاً، والله أعلم، وقد حكى القرطبي وغيره فيهم اثني عشر قولاً منها: أنهم شهدوا أنهم صلحاء تفرعوا من فروع الآخرة وخلق يطلعون على أخبار الناس وقيل: هم أنبياء، وقيل: هم ملائكة.

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيَمَتِهِمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه وأهل النار بسواد الوجوه، وكذا روى الضحاك عنه، وقال العوفي عن ابن عباس: أنزلهم الله تلك المنزلة ليعرفوا من في الجنة والنار وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه، ويتعذروا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين، وهم في ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام لم يدخلوها وهم يطمعون أن يدخلوها، وهم داخلوها إن شاء الله، وكذا قال مجاهد والضحاك والسدي والحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم.

وقال معمر عن الحسن: إنه تلا هذه الآية ﴿لَنْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ قال: والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريد بها بهم: وقال قتادة: أنبأكم الله بمكانهم من الطمع، وقوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. وقال السدي: وإذا مروا بهم يعني بأصحاب الأعراف بزمرة يذهب بها إلى النار قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. وقال عكرمة: تحدد وجوههم للنار فإذا رأوا أصحاب الجنة ذهب ذلك عنهم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾: فرأوا وجوههم مسودة وأعينهم مزرقة ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

(١) أورده الذهبي في سير الأعلام (٨/١٧) عن أنس بن مالك، وقال: هذا حديث منكر جداً.

﴿وَأَدَّى أَحْسَبُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَانِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٠﴾  
 أَهْتَوْلَا الَّذِينَ آقَسْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخَلُوا أَلْبَنَةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿١١﴾﴾

يقول الله تعالى إخبارًا عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم يعرفونهم في النار بسيماهم: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أى كثرتكم ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى لا ينفذكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال. ﴿أَهْتَوْلَا الَّذِينَ آقَسْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قال على بن أبى طلحة: عن ابن عباس يعنى أصحاب الأعراف ﴿أَدْخَلُوا أَلْبَنَةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن سعد حدثنى أبى حدثنى عمى حدثنى أبى عن أبيه عن ابن عباس ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ الآية، قال: فلما قالوا لهم الذى قضى الله أن يقولوا يعنى أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار قال الله لأهل التكبر والأموال: ﴿أَهْتَوْلَا الَّذِينَ آقَسْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخَلُوا أَلْبَنَةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

وقال حذيفة<sup>(١)</sup>: إن أصحاب الأعراف قوم تكافأت أعمالهم فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة وقصرت بهم سيئاتهم عن النار فجعلوا على الأعراف يعرفون الناس بسيماهم، فلما قضى الله بين العباد أذن لهم فى طلب الشفاعة فأتوا آدم فقالوا: يا آدم أنت أبونا فاشفع لنا عند ربك، فقال: هل تعلمون أن أحدًا خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وسبقت رحمته إليه غضبه وسجدت له الملائكة غيرى؟ فيقولون: لا يقول: ما علمت كنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن اثتوا ابنى إبراهيم فيأتون إبراهيم ﷺ فيسألونه أن يشفع لهم عند ربهم فيقول: تعلمون من أحد اتخذ الله خليلًا؟ هل تعلمون أن أحدًا أحرقه قومه بالنار فى الله غيرى؟ فيقولون: لا يقول: ما علمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن اثتوا ابنى موسى فيأتون موسى عليه السلام فيقول: هل تعلمون من أحد كلمه الله تكميلًا وقربه نجيبًا غيرى؟ فيقولون: لا يقول: ما علمت كنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن اثتوا عيسى فيأتونه عليه السلام فيقولون له: اشفع لنا عند ربك، فيقول: هل تعلمون أحدًا خلقه الله من غير أب؟ فيقولون: لا يقول: هل تعلمون من أحد كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله غيرى؟ قال: فيقولون: لا، فيقول: أنا حجيج نفسى ما علمت كنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن اثتوا محمدًا ﷺ فيأتونى فأضرب بيدي على صدرى ثم أقول: أنا لها ثم أمشى حتى أقف بين يدي العرش فأتى ربي عز وجل فيفتح لى من الثناء ما لم يسمع السامعون بمثله قط ثم أسجد، فيقال لى: يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسى ثم أثنى على ربي عز وجل ثم أخرج ساجدًا فيقال لى: ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسى فأقول: «ربى أمتى فيقول: هم لك فلا يبقى نبي مرسل ولا ملك مقرب إلا غبطنى بذلك المقام وهو المقام المحمود، فأتى بهم الجنة فاستفتح فيفتح لى ولهم فيذهب بهم إلى نهر يقال له: نهر الحيوان، حافتهاء قصب مكلل باللؤلؤ، ترابه المسك، وحصباؤه الياقوت فيغتسلون منه فتعود إليهم ألوان أهل الجنة وريح أهل الجنة فيصيرون كأنهم الكواكب الدرية، ويبقى

(١) رواه الطبرى (١٩٩/٨) من حديث محمد بن الحسين.

في صدورهم شامات بيض يعرفون بها يقال: مساكين أهل الجنة.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أفيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكٰفِرِينَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا فَأَلْيَوْمَ نَنْسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِتَابِعِينَ يَجْحَدُونَ ﴿٥٢﴾﴾

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك قال السدي ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أفيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾: يعني الطعام: وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يستطعمونهم ويستسقونهم، وقال الثوري عن عثمان الثقفي عن سعيد بن جبير في هذه الآية قال: ينادى الرجل أباه أو أخاه فيقول له: قد احترقت فأفرض على من الماء فيقال لهم: أجيبوهم فيقولون: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾ وروى من وجه آخر عن سعيد عن ابن عباس مثله سواء. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾: يعني طعام الجنة وشرابها.

قال ابن أبي حاتم <sup>(١)</sup>: حدثنا أبي حدثنا نصر بن علي أخبرنا موسى بن المغيرة حدثنا أبو موسى الصفار في دار عمرو بن مسلم قال: سألت ابن عباس أو سئل أي الصدقة أفضل؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة الماء ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله؟» وقال أيضًا <sup>(٢)</sup>: حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي صالح قال لما مرض أبو طالب قالوا له: لو أرسلت إلى ابن أخيك هذا فيرسل إليك بعنقود من الجنة لعله أن يشفيك به، فجاءه الرسول وأبو بكر عند النبي ﷺ فقال أبو بكر ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾.

ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا باتخاذهم الدين لهواً ولعباً واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للأخرة، وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أي يعاملهم معاملة من نسيتهم، لأنه تعالى لا يشد عن علمه شيء ولا ينساه كما قال تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَعْزِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢] وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة كقوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] وقال: ﴿كَذَلِكَ أَنْتَ إِذْ أَنْتَ نَسِيْنَا فَنَسِينَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِيْكَ﴾ [طه: ١٢٦] وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسُوكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجناب: ٣٤].

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ قال: نسيتهم الله من الخير ولم ينسهم من الشر، وقال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس قال: تركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا، وقال مجاهد: تركهم في النار.

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٠٣/٦)، حديث (٦١٩٢)، وأبو يعلى في مسنده (٧٧/٥) حديث (٢٦٧٣) عن ابن عباس. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٣١/٣) رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط وفيه موسى بن المغيرة وهو مجهول.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥٧/٧) حديث (٣٤١٨٢) عن أبي صالح.

وقال السدى: تركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا، وفي الصحيح<sup>(١)</sup> أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك تراس وتربع؟ فيقول: بلى فيقول: أظننت أنك ملاقى؟ فيقول: لا فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتي؟ .

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٦٦﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِالْحَقِّ فَمَا كَانُوا يَنْصَتُونَ ﴿١٦٧﴾ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن إعداده إلى المشركين بإرسال الرسل إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول وأنه كتاب مفصل مبين كقوله: ﴿كُنْتُ أُخْبِتُ أَيُّنُّهُ ثُمَّ فُصِّلْتُ مِن لَّدُنِّي حِكْمًا خَيْرًا﴾ الآية (هود: ١)، وقوله: ﴿فَصَلَّنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ للعالمين أي على علم منا بما فصلناه به كقوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُ بِعِلْمٍ﴾ [النساء: ١٦٦].

قال ابن جرير: وهذه الآية مردودة على قوله: ﴿كُنْتُ أَنْزَلُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [الأعراف: ٢]، ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ﴾ الآية، وهذا الذي قاله فيه نظر، فإنه قد طال الفصل ولا دليل عليه، وإنما الأمر أنه لما أخبر بما صاروا إليه من الخسارة في الآخرة ذكر أنه قد أزاح عنهم في الدنيا بإرسال الرسل وإنزال الكتب كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ولهذا قال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي ما وعدوا به من العذاب والتكال والجنة والنار، قاله مجاهد وغير واحد، وقال مالك: ثوابه .

وقال الربيع: لا يزال يجيء من تأويله أمر حتى يتم يوم الحساب حتى يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار فيتم تأويله يومئذ. وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ أي يوم القيامة قال ابن عباس ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾: أي تركوا العمل به وتناسوه في الدار الدنيا: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِالْحَقِّ فَمَا كَانُوا يَنْصَتُونَ﴾ أي في خلاصنا مما صرنا إليه مما نحن فيه ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الدار الدنيا ﴿فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ كقوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوا عَنَّا لَوَارِثُ آلٍ يَتْلُونَ آيَاتِنَا نُوَدِّعُ أَهْلَ الْبُيُوتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا حَتَّىٰ لَا يَعْلَمُوا بِمِصْرَارِنَا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنَّا إِنَّا مَنَعْنَاهُم مَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨] كما قال ههنا: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا يشفعون فيهم ولا ينصرونهم ولا ينقذونهم مما هم فيه .

﴿إِنَّا رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ يُعْشَىٰ لَيْلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَبِيبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

يخبر تعالى أنه خلق العالم سماواته وأرضه وما بين ذلك في ستة أيام كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، والستة الأيام هي: الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة، وفيه اجتمع

(١) أخرجه مسلم حديث (٢٩٦٨) عن أبي هريرة .

الخلق كله، وفيه خلق آدم عليه السلام. واختلفوا في هذه الأيام هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان أو كل يوم كالف سنة كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس؟ فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع ومنه سمي السبت وهو القطع.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده<sup>(١)</sup> حيث قال: حدثنا حجاج حدثنا ابن جريج أخبرني إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال فيها يوم الأحد وخلق الشجر فيها يوم الإثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبت فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل» فقد رواه مسلم بن الحجاج في صحيحه والنسائي من غير وجه عن حجاج وهو ابن محمد الأعمور عن ابن جريج به، وفيه استيعاب الأيام السبعة والله تعالى قد قال ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار ليس مرفوعاً والله أعلم.

وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى السَّمَوَاتِ﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله لا يشبهه شيء من خلقه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] بل الأمر كما قال الأئمة منهم: نعيم بن حماد الخزازي شيخ البخاري قال: من شبه الله بخلقه كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه، ولا رسوله تشبيه فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى.

وقوله تعالى: ﴿يُقَيِّدُ أَيْدِيَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُ شَاءَ﴾ أى يذهب ظلام هذا بضياء هذا وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً أى سريعاً لا يتأخر عنه بل إذا ذهب هذا جاء هذا وعكسه كقوله: ﴿وَأَيُّدِيَّهُمْ أَيْدِيَ النَّهَارِ وَمِنْهُ النَّهَارُ إِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْدِيَ سَائِرِ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧-٤٠] فقوله: ﴿وَلَا أَيْدِيَ سَائِرِ النَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠] أى لا يفوته بوقت يتأخر عنه بل هو فى أثره بلا واسطة بينهما؛ ولهذا قال ﴿يَطْلُبُهُ حَيْثُ شَاءَ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ منهم من نصب ومنهم من رفع وكلاهما قريب المعنى، أى الجميع تحت قهره وتسخيره ومشينته؛ ولهذا قال منبهاً: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أى له الملك والتصرف ﴿بَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ كقوله: ﴿بَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا يَزِيدًا وَفَعَرَ مَبِيعًا﴾ الآية [الفرقان: ٦١].

قال ابن جرير<sup>(١)</sup>: حدثني المثنى، حدثنا إسحاق حدثنا هشام أبو عبد الرحمن، حدثنا بقرية بن الوليد، حدثنا عبد الغفار بن عبد العزيز الأنصاري عن عبد العزيز الشامي عن أبيه وكانت له صحبة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح وحمد نفسه فقد كفر وحبط عمله، ومن زعم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئاً فقد كفر بما أنزل الله على أنبيائه» لقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

وفى الدعاء المأثور عن أبي الدرداء وروى مرفوعاً «اللهم لك الملك كله ولك الحمد كله وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله وأعوذ بك من الشر كله».

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّكُمْ لَا تُحِبُّونَ الْمُتَذَكِّرِينَ﴾<sup>(٢)</sup> وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾

أرشد تبارك وتعالى عباده إلى دعائه الذي هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم فقال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ قيل: معناه تذللًا واستكانة، وخفية كقوله: ﴿وَأَذْكُرْ تِلْكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْفُدُوِّ وَالْأَصْوَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ الآية [الأعراف: ٢٠٥] وفى الصحيحين<sup>(٣)</sup> عن أبي موسى الأشعري قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا إن الذي تدعون سميع قريب» الحديث.

وقال ابن جرير عن عطاء الخراساني عن ابن عباس في قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ قال: السر وقال ابن جرير: تضرعًا تذللًا واستكانة لطاعته وخفية يقول: بخشوع قلوبكم وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه لا جهرًا مراعاة وقال عبد الله بن المبارك بن فضالة عن الحسن قال: إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزوار وما يشعرون به، ولقد أدركننا أقوامًا ما كان على الأرض من عمل يقدر أن يعملوه في السر فيكون علانية أبدًا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وذلك أن الله ذكر عبدًا صالحًا رضى فعله فقال: ﴿إِذْ نَادَى رَبُّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣] وقال ابن جرير: يكره رفع الصوت والنداء والصرخ في الدعاء ويؤمر بالتضرع والاستكانة.

ثم روى عن عطاء الخراساني عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَا تُحِبُّونَ الْمُتَذَكِّرِينَ﴾ في الدعاء ولا في غيره وقال أبو مجلز: ﴿إِنَّكُمْ لَا تُحِبُّونَ الْمُتَذَكِّرِينَ﴾: لا يسأل منازل الأنبياء، وقال أحمد<sup>(٣)</sup> حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا شعبة عن زياد بن مخرق سمعت أبا نعام عن مولى لسعد أن سعدًا سمع ابنًا له يدعو وهو يقول: اللهم إنى أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحوًا من هذا وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها، فقال: لقد سألت الله خيرًا كثيرًا وتعوذت به من شر كثير وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء» - وفى لفظ - «يعتدون في الطهور والدعاء» - وقرأ

(١) رواه الطبري (٢٠٦/٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم، حديث (٢٧٠٤)، وأحمد (١٩٠٢٦)، عن أبي موسى الأشعري.

(٣) مسند أحمد (١٤٨٦).

هذه الآية ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ الآية - وإن بحسبك أن تقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل» ورواه أبو داود<sup>(١)</sup> من حديث شعبة عن زياد بن مخراق عن أبي نعامة عن مولى لسعد عن سعد فذكره والله أعلم، وقال الإمام أحمد<sup>(٢)</sup>: حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا الجريري عن أبي نعامة أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها فقال يا بني سل الله الجنة وعُدْ به من النار فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور» وهكذا رواه ابن ماجه<sup>(٣)</sup> عن أبي بكر بن أبي شيبه عن عفان به، وأخرجه أبو داود<sup>(٤)</sup> عن موسى بن إسماعيل عن حماد بن سلمة عن سعيد بن إياس الجريري عن أبي نعامة واسمه: قيس بن عباية الحنفي البصري، وهو إسناد حسن لا بأس به والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض وما أضره بعد الإصلاح فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد ثم وقع الإفساد بعد ذلك كان أضر ما يكون على العباد فنهى تعالى عن ذلك وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه فقال: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أى خوفًا بما عنده من وبيل العقاب وطمعًا فيما عنده من جزيل الثواب ثم قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِمَّنِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى إن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَلْتُنَّهَا لِلَّذِينَ نَتَقُونَ وَرُؤُوسَ الزَّكَاةِ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَتَمَّ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٦-١٥٧] وقال: قريب ولم يقل: قريبة لأنه؛ ضمن الرحمة معنى الثواب أو لأنها مضافة إلى الله فلهذا قال: ﴿قَرِيبٌ مِمَّنِ الْمُحْسِنِينَ﴾ وقال مطر الوراق: تنجزوا موعود الله بطاعته فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين. رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بِيَدِ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا نِّفَالًا سَفَقْتَهُ لِيَسْكَرَ بِهِ الْمَاءُ فَأُخْرِجَنَا مِنْهُ مِنْ كُلِّ الشَّرَاةِ كَذَلِكَ يُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر، وأرشد إلى دعائه؛ لأنه على ما يشاء قادر نبيه تعالى على أنه الرزاق وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ نُشْرًا﴾ أى منتشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر ومنهم من قرأ ﴿بُشْرًا﴾ كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦] وقوله: ﴿بِيَدِ رَحْمَتِهِ﴾ أى بين المطر كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْعُقَيْبَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨] وقال: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيٍ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠] وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا﴾ أى حملت الرياح سحابًا ثقلاً أى من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلة قريبة

(٢) أحمد (٢٠٠٣١).

(٤) أبو داود (٩٦).

(١) أخرجه أبو داود، حديث (١٤٨٠).

(٣) ابن ماجه (٣٨٦٤).

قريبة من الأرض مدلهمة كما قال زيد بن عمرو بن نفيل رحمه الله :

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المزن تحمل عذبا زلالا  
وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرًا ثقالا

وقوله: ﴿سُقْنَةُ بِلَكْرٍ مَيِّتٍ﴾ أى إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها كقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنَ الْأَرْضِ الْقَيْتَةُ أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ الآية [يس: ٣٣] ولهذا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نَخْرِجُ الْمَوْتُومَ﴾ أى كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها كذلك نحى الأجساد بعد صيرورتها ريمًا يوم القيامة، ينزل الله سبحانه وتعالى ماء من السماء فتمطر الأرض أربعين يوما فتنبت منه الأجساد فى قبورها كما ينبت الحب فى الأرض، وهذا المعنى كثير فى القرآن يضرب الله مثلا ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها ولهذا قال: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ تَدَّكَّرُونَ﴾ وقوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتًا بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أى والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعًا حسنًا كقوله ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [إل عمران: ٣٧] ﴿وَالَّذِي حَبَّتْ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ قال مجاهد وغيره كالسباخ ونحوها وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر.

وقال البخارى<sup>(١)</sup>: حدثنا محمد بن العلاء حدثنا حماد بن أسامة عن يزيد بن عبد الله عن أبى بردة عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثنى الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا فكانت منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلا والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به» رواه مسلم والنسائى من طرق عن أبى أسامة حماد بن أسامة به.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٦١﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٣﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

لما ذكر تعالى قصة آدم فى أول السورة وما يتعلق بذلك وما يتصل به وفرغ منه شرع تعالى فى ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام الأول فالأول فابتدأ بذكر نوح عليه السلام فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ وهو إدريس النبى عليه السلام فيما يزعمون - وهو أول من خط بالقلم - ابن برد بن مهليل بن قنين بن يانش بن شيث بن آدم عليهم السلام هكذا نسبه محمد بن إسحاق وغير واحد من أئمة النسب.

قال محمد بن إسحاق: ولم يلق نبى من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبى قتل وقال يزيد الرقاشى إنما سمى نوح لكثرة ما نوح على نفسه وقد كان بين آدم إلى زمن نوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم

(١) أخرجه البخارى (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).



السهل والجبل وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما عذب الله قوم نوح إلا والأرض ملأى بهم وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحائز وقال ابن وهب: بلغنى عن ابن عباس أنه نجامع نوح فى السفينة ثمانون رجلاً أحدهم جرهم وكان لسانه عربياً رواه ابن أبى حاتم وروى متصلاً من وجه آخر عن ابن عباس رضى الله عنهما .

ثلاثة  
أربع  
الحزب  
١٦

﴿وَالَّذِينَ عَادُوا أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفَوِرَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّنَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ يَنْفَوِرَ لَيْسَ بِ سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ كَفَرُوا مِنْكُمْ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذَكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْعَةً فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحاً كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً. قال محمد بن إسحاق: هم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح. قلت: هؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمدة فى البر كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَادِ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ مِثْلَهَا فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الفجر: ٦-٨]، وذلك لشدة بأسهم وقوتهم كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥] وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف وهى جبال الرمل. قال محمد بن إسحاق عن محمد بن عبد الله بن أبى سعيد الخزاعى عن أبى الطفيل عامر بن واثلة: سمعت علياً يقول لرجل من حضرموت: هل رأيت كشيئاً أحمر يخالطه مدرة حمراء ذا أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت هل رأيتها؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين؟ والله إنك لتنتعته نعت رجل قد رآه، قال: لا ولكنى قد حدثت عنه فقال الحضرمى وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال: فيه قبر هود عليه السلام رواه ابن جرير. وهذا فيه فائدة: أن مساكنهم كانت باليمن فإن هوداً عليه السلام دفن هناك، وقد كان من أشرف قومه نسباً؛ لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم؛ وكانوا من أشد الأمم تكذيباً للحق ولهذا دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى طاعته وتقواه.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ وَالْمَلَأُ هُمُ الْجُمْهُورُ وَالسَّادَةُ وَالْقَادَةُ مِنْهُمْ﴾ [إِنَّا لَنَرُّنَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ] أى فى ضلالة حيث تدعوننا إلى ترك عبادة الأصنام والإقبال على عبادة الله وحده، كما تعجب الملا من قريش من الدعوة إلى إله واحد فقالوا: ﴿أَجْعَلُ الْأَيْلَةَ إِلَهًا وَجِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ الآية [ص: ٥] ﴿قَالَ يَنْفَوِرَ لَيْسَ بِ سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى لست كما تزعمون بل جئتكم بالحق من الله الذى خلق كل شىء فهو رب كل شىء ومليكه ﴿أُولَئِكَ كَفَرُوا مِنْكُمْ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ وهذه الصفات التى يتصف بها الرسل البلاغ والنصح والأمانة ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ أى لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم لينذروكم أيام الله ولقاءه بل احمداوا الله على ذاكم ﴿وَأَذَكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أى واذكروا

نعمة الله عليكم في جعلكم من ذرية نوح الذي اهلك الله اهل الارض بدعوته لما خالفوه وكذبوه ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ أى زاد طولكم على الناس بسطة، أى جعلكم أطول من أبناء جنسكم كقوله فى قصة طالوت: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْأَعْمَارِ وَالْجِسْرِ﴾ [البقرة: ٢٤٧] ﴿فَأَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أى نعمه ومنته عليكم ﴿أَمَلَكُوا قُلُوبَهُمْ﴾ والآلاء جمع: إلى، وقيل: إلى.

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَنَحْدُوهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَمْبُدُ آبَاؤَنَا فَأَيْنَا بِنَمَا تَعَدْنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَدِّلُونَنِي فِئْتُمْ أَسْمَلُوا سَبَّيْتُمْوهَا أَنْتُمْ وَمَا بَأْسُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٣٢﴾ فَأَجْبَيْتُهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣٣﴾﴾

يخبر تعالى عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَنَحْدُوهُ﴾ الآية كقول الكفار من قريش: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا لِمَا تَدْعُونَ فَاغْتُزَّ عَلَيْنَا جِبَارَةٌ مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتَيْنَا بِمَدَادٍ أَلْبِنَا﴾ [الأنفال: ٣٢] وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره أنهم كانوا يعبدون أصنامًا فصنم يقال له: صمداء وآخر يقال صمود وآخر يقال له الهباء؛ ولهذا قال هود عليه السلام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أى قد وجب عليكم بمقاتلتكم هذه من رجم قيل: هو مقلوب من رجز. وعن ابن عباس: معناه سخط وغضب ﴿أَتُجَدِّلُونَنِي فِئْتُمْ أَسْمَلُوا سَبَّيْتُمْوهَا أَنْتُمْ وَمَا بَأْسُكُمْ﴾ أى أنا حاجونى فى هذه الأصنام التى سميتوها أنتم وأبأؤكم آلهة وهى لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلاً؛ ولهذا قال: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ وهذا تهديد ووعد من الرسول لقومه، ولهذا عقبه بقوله: ﴿فَأَجْبَيْتُهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم فى أماكن آخر من القرآن بأنه أرسل عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالرميم كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَلَمَّا عَادَ أَقْمَلِكُوا بِرِيحٍ مَرْصُومٍ مَبْرُورٍ مَسْرُورًا عَلَيْهِمْ سَبَّحَ لَيْلًا وَنَهْيَةً آيَاتٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ غَلِيْلٌ خَاوِيَوْهَدٌ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاطِنِهِمْ إِبْرِيْقًا﴾ [الحاقة: ٦-٨] لما تمردوا وعتوا أهلكهم الله بريح عاتية فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه فى الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشغ رأسه حتى تبيته من بين جسده؛ ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ غَلِيْلٌ خَاوِيَوْهَدٌ﴾ [الحاقة: ٧] وقال محمد بن إسحاق: كانوا يسكنون باليمن بين عمان وحضرموت، وكانوا مع ذلك قد فشوا فى الأرض وقهروا أهلها بفضل قوتهم التى آتاهم الله، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله فبعث الله إليهم هودًا عليه السلام، وهو من أوسطهم نسبًا وأفضلهم موضعًا فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلها غيره، وأن يكفروا عن ظلم الناس فأبوا عليه وكذبوه، وقالوا: من أشد منا قوة؟ وأتبعه منهم ناس وهم يسير يكتمون إيمانهم فلما عنت عاد على الله وكذبوا نبيه، وأكثروا فى الأرض الفساد وتجبروا وبنوا بكل ريع آية عبثا بغير نفع كلمهم هود فقال: ﴿أَتَنْتُونُنِي بِكُلِّ رِيْعٍ مَائَةٍ تَبْتُونَ وَتَسْتَجِدُّونَ مَصَالِحَ لِكُلِّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَانقُتُوا اللَّهَ وَأَطِيعُواهُنَّ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣١] ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَاتٍ وَمَا نَحْنُ بِبَارِكِي الْهَالِكِينَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْرَابًا مِمَّا تَكْتُمُ الْهَالِكِينَ﴾

[هود: ٥٣-٥٤] أَيْ بَجْنُون ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ ۖ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤-٥٦].

قال محمد بن إسحاق: فلما أبو الكفر به أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين فيما يزعمون حتى جهدهم ذلك قال: وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان وطلبوا من الله الفرج فيه إنما يطلبونه بحرمة ومكان بيته، وكان معروفًا عند الملل وبه العماليق مقيمون، وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وكان سيدهم إذ ذاك رجلًا يقال له: معاوية بن بكر، وكانت له أم من قوم عاد واسمها: كلهدة بنت الخيبري قال: فبعثت عاد وفدًا قريبًا من سبعين رجلًا إلى الحرم ليستسقوا لهم عند الحرم فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهرًا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان - قينتان لمعاوية- وكانوا قد وصلوا إليه في شهر، فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف عمل شعرا يعرض لهم بالانصراف وأمر القينتين أن تغنياهم به فقال:

ألا يا قيل ويحك قم فهينم	لعل الله يصبحنا غماما
فيسقى أرض عاد إن عادًا	قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد وليس نرجو	به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير	فقد أمست نساؤهم عياما
وإن الوحش تأتيهم جهازًا	ولا تخشى لعادي سهاما
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم	نهاركم وليلكم التماما
فقبح وفدكم من وفد قوم	ولا لُقوا التحية والسلاما

قال: فعند ذلك تنبه القوم لما جاءوا له فنهضوا على الحرم ودعوا لقومهم فدعا داعيهم وهو قيل: بن عنز فأنشأ الله سحابات ثلاثًا بيضاء وسوداء وحمراء ثم ناداه مناد من السماء اختر لنفسك أو لقومك من هذا السحاب فقال: اخترت هذه السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء فناداه مناد: اخترت رماذا رمدًا، لا تبقى من عاد أحدًا لا والدًا تترك ولا ولدًا، إلا جعلته همدًا، إلا بنى اللوزية المهندا، قال: وبنو اللوزية بطن من عاد يقيمون بمكة فلم يصيبهم ما أصاب قومهم. قال: وهم من بقى من أنسالهم وذريتهم عاد الآخرة. قال: وساق الله السحابة السوداء فيما يذكرون التي اختارها قيل: بن عنز بما فيها من النعمة إلى عاد حتى تخرج عليهم من واد يقال له: المغيث فلما رأوها استبشروا وقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّطْرًا﴾ [الأحقاف: ٢٤] يقول: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تَدْمُرُ كُلَّ مَنْعٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥] أي تهلك كل شيء مرت به فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها: ميمد فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت، فلما أفاقوا قالوا: ما رأيت يا ميمد؟ قالت: ريحًا فيها شبه النار أمامها رجال يقودونها فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا كما قال الله تعالى. والحسوم: الدائمة فلم تدع من عاد أحدًا إلا هلك، واعتزل هود عليه السلام فيما ذكر لي ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبه ومن معه إلا ما تلين عليه الجلود، وتلد الأنفس، وإنما لتمر على عاد بالطنن ما بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة،

وذكر تمام القصة بطولها وهو سياق غريب فيه فوائد كثيرة وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨].

وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده قريب مما أورده محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله، وقال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا زيد بن الحباب حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي حدثنا عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن الحارث البكري قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ فمررت بالريذة، فإذا بعجوز من بنى تميم منقطع بها فقالت لي: يا عبد الله إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة هل أنت مبلغني إليه؟ قال: فحملتها فأبيت المدينة فإذا المسجد غاص بأهله وإذا راية سوداء تخفق وإذا بلال متقلد سيقاً بين يدي رسول الله ﷺ فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً قال: فجلست فدخل منزله أو قال: رحله فاستأذنت عليه فأذن لي فدخلت وسلمت فقال: «هل بينكم وبين تميم شيء؟» قلت: نعم وكانت لنا الدائرة عليهم.

ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها فسألته أن أحملها إليك وها هي بالباب فأذن لها فدخلت فقلت: يا رسول الله إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً فاجعل الدهناء فحميت العجوز واستوفزت، وقالت: يا رسول الله فإلى أين يضطر مضطرك؟ قال: قلت: إن مثلي مثل ما قال الأول: «معزى حملت حتفها»، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصماً أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كرافد عاد قال لي: «وما وافد عاد؟» - وهو أعلم بالحديث منه ولكن يستطعمه - قلت: إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له بن عذر قيل: فمر بمعوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما: الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة فقال: اللهم إنك تعلم أنني لم أجد إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه، فمرت به سحبات سود فنودي منها: اختر فأوما إلى سحابة منها سوداء فنودي منها: خذها رامداً رمدداً، لا تبقى من عاد أحداً قال: فما بلغني أنه بعث الله عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا حتى هلكوا.

قال أبو وائل وصدق قال: وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: لا تكن كوافد عاد، هكذا رواه الإمام أحمد في المسند، ورواه الترمذي عن عبد بن حميد عن زيد بن الحباب به نحوه، ورواه النسائي من حديث سلام بن أبي المنذر عن عاصم وهو ابن بهدلة، ومن طريقه رواه ابن ماجه أيضاً عن أبي وائل عن الحارث بن حسان البكري به، ورواه ابن جرير<sup>(٢)</sup> عن أبي كريب عن زيد بن حباب به، ووقع عنده عن الحارث بن يزيد البكري فذكره، ورواه أيضاً<sup>(٣)</sup> عن أبي كريب عن أبي بكر بن عياش عن عاصم عن الحارث بن حسان البكري فذكره، ولم أر في النسخة أبا وائل والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْكُفْرِ الْمَكِيدِينَ الَّذِينَ كَانُوا لِجَنَّةٍ مُّبِينٍ لَّعَنَهُمُ اللَّهُ وَوَعَدَهُمْ جَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأعراف: ١٧-١٨].

(١) أخرجه أحمد (١٥٥٢٤).

(٢) تفسير الطبري (٨/ ٢٢٠).

(٣) تفسير الطبري (٨/ ٢٢١).

يَسْؤِرُوا فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ  
تَنْجُدُونَ مِنْ سَهُولِهَا فُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ يَوْمًا فَاذْكُرُوا آيَاتَ اللَّهِ وَلَا تَمُوتُوا فِي الْأَرْضِ  
مُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ  
اَتَّخِذُوا أَنْتُمْ صُلَحًا مُرْسَلًا مِنْ رَبِّكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٨﴾ قَالَ الَّذِينَ  
اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٩﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا  
يَصْلِحُ أَثْنَتَا يَمَّا تَوَدَّانَا إِنْ كُنَّا مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ  
جَنِينًا ﴿٨١﴾

قال علماء التفسير والنسب: ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح وهو أخو جدیس بن عاثر،  
وكذلك قبيلة طسم كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام، وكانت  
ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، وقد مر  
رسول الله ﷺ على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك في سنة تسع. قال الإمام أحمد حدثنا عبد  
الصمد حدثنا صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك  
نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها  
ونصبوا لها القدور فأمرهم النبي ﷺ فأهرقوا القدور وعلفوا العجين الإبل ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم  
على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال: «إني أخشى أن  
يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم» وقال أحمد<sup>(١)</sup> أيضًا: حدثنا عفان حدثنا عبد العزيز بن  
مسلم حدثنا عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «لا تدخلوا  
على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما  
أصابهم» وأصل هذا الحديث مخرج في الصحيحين<sup>(٢)</sup> من غير وجه.

وقال الإمام أحمد<sup>(٣)</sup> أيضًا: حدثنا يزيد بن هارون المسعودي عن إسماعيل بن أوسط عن  
محمد بن أبي كبشة الأنماري عن أبيه قال: لما كان في غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر  
يدخلون عليهم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى في الناس: «الصلاة جامعة» قال: فأتيت رسول الله ﷺ  
وهو ممسك بعنزة وهو يقول: «ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم» فناداه رجل منهم: نعجب منهم  
يا رسول الله؟ قال: «أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك: رجل من أنفسكم ينبتكم بما كان قبلكم وبما هو  
كائن بعدكم فاستقيموا وسددوا فإن الله لا يعابأ بعذابكم شيئًا وسيأتى قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئًا»  
لم يخرج أحد من أصحاب السنن، وأبو كبشة اسمه: عمر بن سعد ويقال: عامر بن سعد والله أعلم،  
وقال الإمام أحمد<sup>(٤)</sup>: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الزبير

(١) أحمد (٥٤١٨).

(٢) أخرجه البخاري حديث (٤٣٣)، ومسلم برقم (٢٩٨٠)، عن عبد الله بن دينار به.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٥٦٨)، والطبراني في الكبير (٣٤٠/٢٢)، حديث (٨٥١)، وأورده الهيثمي في  
المجمع (١٩٤/٦)، وقال: رواه أحمد، وفيه عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٦/٣)، حديث (١٤١٩٣) عن جابر، والحاكم في المستدرک (٣٥١/٢)، حديث

عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات فقد سألتها قوم صالح فكانت -  
يعنى الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ففتوا عن أمر ربهم فمقروها، وكانت تشرب ماءهم  
يوماً ويشربون لبنها يوماً فمقروها فأخذتهم صيحة أهدم الله من تحت أديم السماء منهم [لا رجلاً واحداً  
كان فى حرم الله] فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «أبو رغال فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب  
قومه» وهذا الحديث ليس فى شيء من الكتب الستة، وهو على شرط مسلم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَمَنْ فِي الْأَرْحَامِ إِن كَانُوا لَعَلَّكُمْ أَفْكَرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٣] أى ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم  
صالحاً ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فجميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا  
شريك له كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾  
[الأنبياء: ٢٥] وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلٰتِ﴾ [النحل: ٣٦]  
وقوله: ﴿فَدَجَلَكُمْ بَيْنَةَ يَدَيْهِمْ نَاقَةٌ إِلَهًا لَكُمْ آيَةً﴾ أى قد جاء تكلم حجة من الله على  
صدق ما جئتكم به، وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من  
صخرة صماء عينوها بأنفسهم، وهى صخرة منفردة فى ناحية الحجر يقال لها: الكاتبة، فطلبوا منه أن  
تخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض، فأخذ عليهم صالح العهد والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم  
وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به ولتبعنه فلما أعطوه على ذلك عهدهم ومواثيقهم قام صالح عليه  
السلام إلى صلاته ودعا الله عز وجل فتحررت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك  
جنينها بين جنبيها كما سألوا فعند ذلك آمن رئيس القوم وهو: جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره  
وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا فصددهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحجاب صاحب أوثانهم ورياب بن  
صمعر بن جلهمس وكان لجندع بن عمرو ابن عم يقال له: شهاب بن خليفة بن مخلدة بن لبيد بن  
جواس، وكان من أشراف ثمود وأفاضلها فأراد أن يسلم أيضاً فنهاه أولئك الرهط فأطاعهم فقال فى  
ذلك رجل من مؤمنى ثمود يقال له: مهوش بن عنمة بن الزميل رحمه الله:

وكانت عصبية من آل عمرو	إلى دين النبى دعوا شهابا
عزيز ثمود كلهم جميعاً	فهتم بأن يجيب فلو أجابا
لأصبح صالح فينا عزيزاً	وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا
ولكن الغواة من آل حجر	تولوا بعد رشدهم ذؤابا

وأقامت الناقة وفصلها بعد ما وضعت بين أظهرهم مدة تشرب من بثرها يوماً وتدعه لهم يوماً وكانوا  
يشربون لبنها يوم شربها يحتلبونها فيملأون ما شاءوا من أوعيتهم وأوانيتهم كما قال فى الآية الأخرى:  
﴿وَيَذَرُهُمْ أَنْ تَلْمَسَ أَيْدِيَهُمْ كُلٌّ يَشْرِبُ مِنْ مَخَضِرٍ﴾ [القم: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿هَذِيذٌ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكِنَّ شِرْبَ يَوْمٍ مَلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] وكانت تسرح فى بعض تلك  
الأودية ترد من فج وتصدر من غيره؛ ليسعها لأنها كانت تتصلع من الماء وكانت على ما ذكر خلقاً هائلاً  
ومنظراً رائعاً إذا مرت بأنعامهم نفرت منها، فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبى عليه  
(٣٢٤٨)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأورده الهيثمي فى المجمع (٥٠/٧) وقال: رواه أحمد  
والبزار والطبراني فى الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح.

السلام عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها. قال قتادة: بلغني أن الذي قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها حتى على النساء في خدورهن، وعلى الصبيان قلت: وهذا هو الظاهر، لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهُ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤]، وقال: ﴿وَأَيُّنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُجْرِمَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ فأسند ذلك على مجموع القبيلة، فدل على رضاهم جميعهم بذلك والله أعلم.

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير وغيره من علماء التفسير أن سبب قتلها أن امرأة منهم يقال لها: عنيزة ابنة غنم بن مجلز، وتكنى أم غنم كانت عجزوا كافرة، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح، عليه السلام، وكانت لها بنات حسان ومال جزيل، وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود، وامرأة أخرى يقال لها: صدوف بنت المحيا بن زهير بن المختار، ذات حسب ومال وجمال، وكانت تحت رجل مسلم من ثمود ففارقه، فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل الناقة، فدعت صدوف رجلاً يقال له: الحباب، فعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، فأبى عليها، فدعت ابن عم لها يقال له: مصدع بن مخرج بن المحيا فأجابها إلى ذلك - ودعت عنيزة بنت غنم قدار بن سالف بن جذع، وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً، يزعمون أنه كان ولد زنية، وأنه لم يكن من أبيه الذي ينسب إليه، وهو سالف، وإنما هو من رجل يقال له: صهياد ولكن ولد على فراش سالف. وقالت له: أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة! فعند ذلك انطلق «قدار بن سالف»، و«مصدع بن مخرج» فاستغويا غواة من ثمود فاتبعهما سبعة نفر، فصاروا تسعة رهط، وهم الذين قال الله تعالى: ﴿وَكَاذِبٌ فِي الدُّنْيَا لِيَمْنَعَهُ رَهْطٌ يُضِلُّونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُضِلُّونَ﴾ [النمل: ٤٨]، وكانوا رؤساء في قومهم، فاستمالوا القبيلة الكافرة بكما لها، فطاعوهم على ذلك فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت من الماء، وقد كمن لها قدار بن سالف في أصل صخرة على طريقها، وكمن لها مصدع في أصل أخرى، فمرت على مصدع فرماها بسهم، فانتظم به عضلة ساقها وخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها، وكانت من أحسن الناس وجهها فسفرت عن وجهها لقدار وذمته وشد على الناقة بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة إلى الأرض ورغت رغاء واحدة تحذر سقبها ثم طعن في لبتها فنحراها، وانطلق سقبها وهو فضيلها حتى أتى جبلاً منيعاً فصعد أعلى صخرة فيه ورغا، فروى عبد الرزاق عن معمر عن الحسن البصري أنه قال: يارب أين أمي؟ ويقال: إنه رغا ثلاث مرات، وإنه دخل في صخرة فغاب فيها، ويقال: بل اتبعوه فعقروه مع أمه فالله أعلم.

فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة، وبلغ الخبر صالحاً، عليه السلام، فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى وقال: ﴿تَمَسُّوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ آيَاتٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرٍ مَكْدُوبٍ﴾ [الآية [هود: ٦٥]، وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح، وقالوا: إن كان صادقاً عجلناه قبلنا، وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته! ﴿قَالُوا نَقَّاسُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّنَنَّ لَهُمْ سُنَّةَ نَبِيِّهِمْ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَّادِقُونَ وَمَكْرُؤًا مَكْرُومًا وَمَكْرَمًا مَكْرَمًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَبِئْسَ مَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٤٩] - ٥٢. فلما عزموا على ذلك، وتواطؤوا عليه، وجاءوا من الليل ليفتكوا بنبي الله، فأرسل الله سبحانه

وتعالى وله العزة ولرسوله عليهم حجارة فرضختهم سلفاً وتعجلاً قبل قومهم، وأصبح ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة، ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح، عليه السلام، وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل، وهو يوم الجمعة، ووجوههم محمرة، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت، ووجوههم مسودة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نعمة الله وعذابه، عياداً بالله من ذلك، لا يدرون ماذا يفعل بهم، ولا كيف يأتيهم العذاب؟ وأشرفت الشمس، جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس في ساعة واحدة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيًّا﴾ أى: صرعى لا أرواح فيهم، ولم يفلت منهم أحد، لا صغير ولا كبير، لا ذكر ولا أنثى - قالوا: إلا جارية كانت مقعدة - واسمها: كلبة ابنة السلق، ويقال لها: الذريعة - وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح، عليه السلام، فلما رأت ما رأت من العذاب، أطلقت رجلاها، فقامت تسعى كأسرع شيء، فأتت حياً من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها، ثم استسقتهم من الماء، فلما شربت، ماتت، قال علماء التفسير: ولم يبق من ذرية ثمود أحد، سوى صالح، عليه السلام، ومن تبعه، رضى الله عنهم، إلا أن رجلاً يقال له: أبو رغال، كان لما وقعت النعمة بقومه مقيماً إذ ذاك في الحرم، فلم يصبه شيء، فلما خرج في بعض الأيام إلى الحل جاءه حجر من السماء فقتله.

وقد تقدم في أول القصة حديث جابر بن عبد الله في ذلك، وذكروا أن أبا رغال هذا هو والد ثقيف الذين كانوا يسكنون الطائف. قال عبد الرزاق (١) عن معمر: أخبرني إسماعيل بن أمية أن النبي ﷺ مر بقبر أبي رغال فقال: «أندرون من هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا قبر أبي رغال، رجل من ثمود، كان في حرم الله، فمنعه حرم الله عذاب الله، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه؛ فدفن ههنا، ودفن معه غصن من ذهب، فنزل القوم فابتدروه بأسياهم فبحثوا عنه، فاستخرجوا الغصن» وقال عبد الرزاق: قال معمر: قال الزهري: أبو رغال أبو ثقيف. هذا مرسل من هذا الوجه، وقد روى متصلاً من وجه آخر، كما قال محمد بن إسحاق، عن إسماعيل بن أمية، عن بجير بن أبي بجير قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف، فمرنا بقبر، فقال: «هذا قبر أبي رغال، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم فدفن عنه، فلما خرج أصابته النعمة التي أصابت قومه بهذا المكان، فدفن فيه، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه»، فابتدروه الناس فاستخرجوا منه الغصن، وهكذا رواه أبو داود (٢)، عن يحيى بن معين، عن وهب بن جرير بن حازم، عن أبيه عن ابن إسحاق به.

قال شيخنا أبو الحجاج المزي: وهو حديث حسن عزيز. قلت: تفرد بوصله «بجير بن أبي بجير» هذا، وهو شيخ لا يعرف إلا بهذا الحديث.

قال يحيى بن معين: ولم أسمع أحداً روى عنه غير إسماعيل بن أمية. قلت: وعلى هذا، فيخشى أن يكون وهم في رفع هذا الحديث، وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو، مما أخذه من الزاملتين. قال شيخنا أبو الحجاج، بعد أن عرضت عليه ذلك: وهذا محتمل، والله أعلم.

(٢) أخرجه أبو داود، حديث (٣٠٨٨).

(١) رواه الطبري (٨/٢٣٠).

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْفَوِرُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ  
التَّصَوِّحَ﴾ ﴿٦٦﴾

هذا تقرير من صالح عليه السلام لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه، وتمردهم على الله، وإبائهم عن قبول الحق، وإعراضهم عن الهدى إلى العمى - قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم، تقريراً وتوبيخاً وهم يسمعون ذلك، كما ثبت في الصحيحين<sup>(١)</sup> أن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل بدر، أقام هناك ثلاثاً، ثم أمر بإرحلته فشددت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها، ثم سار حتى وقف على القلب، فليب بدر، فجعل يقول: «يا أبا جهل بن هشام يا عتبة بن ربيعة يا شيبه بن ربيعة ويا فلان بن فلان هل وجدت ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً» فقال له عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أقوام قد جيفوا؟ فقال: «والذي نفسى بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون» وفي السيرة أنه، عليه السلام، قال لهم: «بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم»<sup>(٢)</sup>. وهكذا صالح، عليه السلام، قال لقومه: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي: فلم تنتفعوا بذلك؛ لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحاً، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ التَّصَوِّحَ﴾ وقد ذكر بعض المفسرين: أن كل نبي هلكت أمته، كان يذهب فيقيم في الحرم، حرم مكة، والله أعلم.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما مر رسول الله ﷺ بوادي عسفان حين حج قال: «يا أبا بكر، أي واد هذا؟» قال: هذا وادي عسفان. قال: «لقد مر به هود وصالح، عليهما السلام، على بكرات حُمُرٍ خطمها الليف، أزرقهم العباء، وأرديتهم النمار، يلبون، يحجون البيت العتيق». هذا حديث غريب من هذا الوجه، لم يخرج أحد منهم.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَجْشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمَلْأَيْنِ ﴿٦٧﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْبَنَاتِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٦٨﴾﴾

يقول تعالى ﴿و﴾ لقد أرسلنا ﴿لوطاً﴾ أو تقديره: ﴿و﴾ اذكر ﴿لوطاً﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴿و﴾. ولوط هو ابن هاران بن آزر، وهو ابن أخى إبراهيم الخليل، عليهما السلام، وكان قد آمن مع إبراهيم، عليه السلام، وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله إلى أهل «سدوم» وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله، عز وجل، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها، لم يسبقهم بها أحد من بنى آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور دون الإناث، وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده، ولا تألفه، ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل «سدوم» عليهم لعائن الله. قال عمرو بن دينار: في قوله: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمَلْأَيْنِ﴾ قال: ما نزا ذكر على ذكر،

(١) سبق تحريجه.

(٢) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (٣/١٨٨)، من قول ابن إسحاق.

حتى كان قوم لوط .

وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي، باني جامع دمشق: لولا أن الله، عز وجل، قص علينا خبر قوم لوط، ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً؛ ولهذا قال لهم لوط، عليه السلام: ﴿أَتَأْتُونَ النَّجْصَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمَلَكَيْنِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْإِنْسَانِ﴾ أي عدلتن عن النساء، وما خلق لكم ريبكم منهن إلى الرجال، وهذا إسراف منكم وجهل؛ لأنه وضع الشيء في غير محله؛ ولهذا قال لهم في الآية الأخرى: ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [العنبر: ٧١]، فأرشدنهم إلى نساتنهم، فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَتَّىٰ وَإِنَّكَ لَتَعْتَرُ مَا تُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩] أي لقد علمت أنه لا أرب لنا في النساء ولا إرادة، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك. وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض، وكذلك نساؤهم كن قد استغنين بعضهم ببعض أيضًا.

﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ﴾<sup>(٧٧)</sup> أي: ما أجابوا لوطًا إلا أن هموا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم، فأخرجه الله تعالى سالما، وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ﴾، قال قتادة: عابوهم بغير عيب.

وقال مجاهد: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ﴾ من أدبار الرجال وأدبار النساء. وروى مثله عن ابن عباس أيضًا.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾<sup>(٧٨)</sup> وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾<sup>(٧٩)</sup>

يقول تعالى: فأنجينا لوطًا وأهله، ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى: ﴿فَأَنفَرْنَا مِنْ كَانٍ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦]، إلا امرأته فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها، تماثلتهم عليه وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم؛ ولهذا لما أمر لوط، عليه السلام ليسرى بأهله أمر أن لا يعلمها ولا يخرجها من البلد. ومنهم من يقول: بل اتبعتهم، فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم. والأظهر أنها لم تخرج من البلد، ولا أعلمها لوط، بل بقيت معهم؛ ولهذا قال ههنا: ﴿إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي الباقين. ومنهم من فسر ذلك ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ الهالكين، وهو تفسير باللازم.

وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ مفسر بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنصُورٍ مُسَوَّمَةٍ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢-٨٣]، ولهذا قال: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: انظر - يا محمد - كيف كان عاقبة من يجترئ على معاصي الله عز وجل ويكذب رسله. وقد ذهب الإمام أبو حنيفة، رحمه الله، إلى أن اللاتظ يلقى من شاقق، ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط.

وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يرمم سواء كان محصنًا أو غير محصن. وهو أحد قولي الشافعي، رحمه الله.

والحجة ما رواه الإمام أحمد، وأبو داود والترمذي وابن ماجه<sup>(١)</sup> من حديث الدراوردي عن عمرو بن أبي عمرو بن أبي عمر عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به».

وقال آخرون: هو كالزاني، فإن كان محصناً رجم، وإن لم يكن محصناً جلد مائة جلدة. وهو القول الآخر للشافعي. وأما إتيان النساء في الأدبار، فهو اللوطية الصغرى، وهو حرام بإجماع العلماء إلا قولاً شاذاً لبعض السلف، وقد ورد في النهي عنه أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ، وقد تقدم الكلام عليها في سورة البقرة.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْوِينًا مِّن رَّبِّكُمْ فَآذِنُوا أَلْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾

قال محمد بن إسحاق: هم من سلالة مدين بن إبراهيم، وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر قال: واسمه بالسريانية: يثرون. قلت: مدين تطلق على القبيلة، وعلى المدينة، وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجِدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، وهم أصحاب الأيكة، كما سنذكره إن شاء الله، وبه الثقة. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾: هذه دعوة الرسل كلهم، ﴿قَدْ جَاءَ تَكْوِينًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أى قد أقام الله الحجج والبيانات على صدق ما جئتمكم به، ثم وعظهم فى معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان، ولا يبخسوا الناس أشياءهم، أى لا يخونوا الناس فى أموالهم ويأخذوها على وجه البخس، وهو نقص المكيال والميزان وتدليساً، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ زَفَوْهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْغَالِبِينَ﴾ [المطففين: ١-٦] وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، نسأل الله العافية منه. ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب، الذى يقال له: خطيب الأنبياء؛ لفصاحة عبارته، وجزالة موعظته:

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكَرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا نَّكَرْتُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢٤﴾﴾  
وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

ينهاهم شعيب، عليه السلام، عن قطع الطريق الحسى والمعنوى، بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أى: تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم.

قال السدى وغيره: كانوا عشارين. وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أى تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه. والأول أظهر؛ لأنه قال: ﴿بِكُلِّ

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه برقم (٢٥٦١)، وأحمد برقم (٢٧٢٢) عن عكرمة عن ابن عباس انظر: إرواء الغليل رقم (٢٣٥٠).

صِرَاطٍ ﴿ وهو الطريق، وهذا الشانى هو قوله: ﴿ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِهِ وَتَجْعَلُونَهَا عِوَجًا ﴾ أى: وتودون أن تكون سبيل الله عوجًا مائلة. ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا نَكَرْتُمْ ﴾ أى كنتم مستضعفين لقلتمكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم، فاذكروا نعمة الله عليكم فى ذلك ﴿ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أى من الأمم الخالية والقرون الماضية، وما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصى الله وتكذيب رسله.

وقوله: ﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ مَأْمُورًا بِالَّذِي أُنزِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾ أى قد اختلفتم على ﴿ فَأَصْبِرُوا ﴾ أى انتظروا ﴿ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ﴾ وبينكم أى يفصل، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ فإنه سيجعل العاقبة للمتقين، والدمار على الكافرين.

الجزء

٩

الحزب

١٧

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ بِشَيْبٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرِينًا أَوْ تَعُوذُونَ فِي مِلَّةِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَفَرِينَ ﴿١٧﴾ قَدْ أَفْرَتْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿١٨﴾﴾

هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيبًا ومن معه من المؤمنين، فى توعدهم إياه ومن معه بالنفى عن القرية، أو الإكراه على الرجوع فى ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه. وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة.

وقوله: ﴿ أُولَئِكَ كَفَرِينَ ﴾ يقول: أو أنتم فاعلون ذلك ولو كنا كارهين ما تدعوننا إليه؟ فإنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه، فقد أعظمتنا الفرية على الله فى جعل الشركاء معه أندادًا، وهذا تعبير منه عن اتباعهم.

﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ﴾، وهذا رد إلى المشيئة، فإنه يعلم كل شىء وقد أحاط بكل شىء علما، ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أى فى أمورنا ما نأتى منها وما نذر ﴿ رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ أى: احكم بيننا وبين قومنا، وانصرنا عليهم، ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ أى خير الحاكمين، فإنك العادل الذى لا يجور أبدًا.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَيْرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا ﴿١٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَفْتَحُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَيْرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

يخبر تعالى عن شدة كفرهم وتمردهم وعتوهم، وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا وقالوا: ﴿ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَيْرُونَ ﴾، فلهذا عقبه بقوله:

﴿ فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا ﴿١٩﴾ ﴾ أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة وذلك كما أرجفوا شعيبًا وأصحابه وتوعدهم بالجملاء، كما أخبر عنهم فى سورة هود فقال: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْئَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِينًا ﴾ [هود: ٩٤]. والمناسبة هناك - والله أعلم - أنهم لما تهكموا به فى قولهم: ﴿ أَصَلُّوْا تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يُعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ

فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْكَافِرُ الرَّشِيدُ ﴿١٨٧﴾ الآية (هود: ٨٧) فجاءت الصيحة فأسكتهم .  
وقال تعالى إخبارًا عنهم في سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّكَ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩] ، وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ الآية [الشعراء: ١٨٧] ، فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة ، وقد اجتمع عليهم ذلك كله ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩] ، وهى سحابة أظلمتهم فيها شر من نار ولهب ووهج عظيم ، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم ، فزهقت الأرواح ، وفاضت النفوس وخمدت الأجسام ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيئِينَ﴾ .  
ثم قال تعالى: ﴿كَانَ لَمْ يَفْتَنُوا فِيهَا﴾ أى كأنهم لما أصابتهم النعمة لم يقيموا بديارهم التى أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها .

ثم قال تعالى مقابلًا لقليلهم: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شَعِيبًا كَاثُرًا هُمُ الْعَاصِينَ﴾ .  
﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي وَفَصَحْتُ لَكُمُ الْكَيْفَ عَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ ﴿١٨٨﴾

أى فتولى عنهم شعيب عليه السلام بعد ما أصابهم من العذاب والنعمة والنكال ، وقال مقررًا لهم وموبخًا: ﴿يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي وَفَصَحْتُ لَكُمُ الْكَيْفَ عَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ .  
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ ﴿١٨٩﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١٩٠﴾

يقول تعالى مخبرًا عما اختبر به الأمم الماضية الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء ، يعنى ﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾ ما يصيبهم فى أبدانهم من أمراض وأسقام ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ ، أى يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى فى كشف ما نزل بهم .  
وتقدير الكلام: أنه ابتلاههم بالشدة ليتضرعوا ، فما فعلوا شيئًا من الذى أراد منهم ، فقلب عليهم الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه ؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أى حولنا الحالة من شدة إلى رخاء ، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية ، ومن فقر إلى غنى ، ليشكروا على ذلك ، فما فعلوا .  
وقوله: ﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ أى كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم ، يقال: عفا الشيء إذا كثر ، ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ، يقول تعالى: ابتليناهم بهذا وهذا ، ليتضرعوا وينيبوا إلى الله ، فما نجح فيهم لا هذا ولا هذا ، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا ، بل قالوا: قد مسنا من البأساء والضراء ، ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا فى قديم الزمان والدهر ، وإنما هو الدهر تارات وتارات ، بل لم يتفطنوا لأمر الله فيهم ، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم فى الحالين ، وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء ، ويصبرون على الضراء ، كما ثبت فى الصحيحين: ﴿عَمِيئًا لِّلْمُؤْمِنِ لَّا يَقْضَىٰ اللَّهُ لَهُ قِضَاءٌ إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ

شكر فكان خيراً له»<sup>(١)</sup> فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء؛ ولهذا جاء في الحديث: «لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقياً من ذنوبه، والمنافق مثله كمثل الحمار، لا يدري فيم يربطه أهله، ولا فيم أرسلوه»، أو كما قال، ولهذا عقب هذه الصفة بقوله: ﴿فَأَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أى: أخذناهم بالعقوبة بغتة، أى على بغتة، وعدم شعور منهم، أى أخذناهم فجأة كما فى الحديث: «موت الفجأة رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر».

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٣١﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٣٢﴾ أَوِ امْنِ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٣٣﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

يخبر تعالى عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل، كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُّؤْتَسَّرُونَ لَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِيَابَ الْغُرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ١٩٨] أى ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس، فإنهم آمنوا، وذلك بعدما عابوا العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِرُوحِنَا وَأَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ فآمَنُوا فَتَنَّاوُا فَتَمَتَّنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٧-١٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أى آمنت قلوبهم بما جاء به الرسل، وصدقت به واتبعوه، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أى قطر السماء ونبات الأرض. قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى ولكن كذبوا رسلهم، فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم.

ثم قال تعالى مخوفاً ومحذراً من مخالفة أوامره، والتجرؤ على زواجه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾، أى الكافرة ﴿أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا﴾ أى عذابنا ونكالنا، ﴿بَيِّنًا﴾ أى ليلاً ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ أَوْ امْنِ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ أى فى حال شغلهم وغفلتهم، ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ أى بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذة إياهم فى حال سهوهم وغفلتهم ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ ولهذا قال الحسن البصرى، رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصى وهو آمن.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّو نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴿٣٥﴾ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا﴾: أو لم يتبين لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم. وكذا قال مجاهد وغيره، وقال أبو جعفر بن جرير فى تفسيرها: يقول تعالى: أو لم يتبين للذين يستخلفون فى الأرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا

(١) أخرجه مسلم حديث (٢٩٩٩)، وأحمد برقم (١٨٤٥٥).



جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم . حكاه ابن عطية ، رحمه الله ، وهو متجه حسن ، كقوله : ﴿ وَمَا يُشِيرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ وَنُقَلِّبُ أَقْدَانَهُمْ وَأَبْصَرْتَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرْنَاهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ الآية (الأنعام: ١٠٩-١١٠) ؛ ولهذا قال هنا : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ ﴾ أى لاكثر الأمم الماضية ﴿ مَن عَهْدٌ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَتَقِينَ ﴾ أى ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال . والعهد الذى أخذه هو ما جبلهم عليه وفطروهم عليه ، وأخذ عليهم فى الأصلا ب أنه ربهم وملي كهم ، وأنه لا إله إلا هو ، فأقروا بذلك ، وشهدوا على أنفسهم به ، وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم ، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة ، لا من عقل ولا شرع ، وفى الفطر السليمة خلاف ذلك ، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهى عن ذلك ، كما جاء فى صحيح مسلم <sup>(١)</sup> : يقول الله تعالى : «إنى خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم» وفى الصحيحين <sup>(٢)</sup> : «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» الحديث .

وقال تعالى فى كتابه العزيز : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ، وقوله تعالى : ﴿ وَسَتَلَّ مَن أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَعْلَنَّا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] إلى غير ذلك من الآيات .

وقد قيل فى تفسير قوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ﴾ ما روى أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب فى قوله : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ﴾ قال : كان فى علمه تعالى يوم أقروا له بالميثاق ، أى فما كانوا ليؤمنوا العلم الله منهم ذلك ، وكذا قال الربيع بن أنس ، عن أبى العالية عن أبى بن كعب عن أنس ، واختاره ابن جرير ، وقال السدى : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ﴾ قال : ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فأمنوا كرهاً ، وقال مجاهد فى قوله : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ﴾ : هذا كقوله : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَمَادُوا لِبَاءِ نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ الآية (الأنعام : ٢٨) .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾

يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى الرسل المتقدم ذكرهم ، كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين ﴿ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾ أى بحججنا ودلائلنا البينة إلى فرعون ، وهو ملك مصر فى زمن موسى ، ﴿ وَمَلَئِهِ ﴾ أى قومه ، ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أى جحدوا وكفروا بها ظلماً منهم وعناداً ، كقوله تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل : ١٤] أى : الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله ، أى : انظر كيف فعلنا بهم ، أغرقناهم عن آخرهم ، بمرأى من موسى وقومه . وهذا أبلغ فى النكال بفرعون وقومه ، وأشفى لقلوب

(٢) سبق تخريجه .

(١) سبق تخريجه .

أولياء الله - موسى وقومه - من المؤمنين به .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْمَلَكِينَ ﴿١٣١﴾ حَقِيقٌ عَلَيَّ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْآلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٢﴾ قَالَ إِن كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون، والجمامه إياه بالحجة، وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْمَلَكِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ أى أرسلنى الذى هو خالق كل شىء وربى ومليكى ﴿ حَقِيقٌ عَلَيَّ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْآلْحَقَّ ﴾ فقال بعضهم: معناه: حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق، أى جدير بذلك وحرى به، قالوا: و«الباء» و«على» يتعاقبان، يقال: رميت بالقوس وعلى القوس، وجاء على حال حسنة و«بحال حسنة»، وقال بعض المفسرين: معناه: حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق .

وقرأ آخرون من أهل المدينة: «حقيق على» بمعنى: واجب وحق على ذلك أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق، لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أى: بحجة قاطعة من الله، أعطانها دليلاً على صدقى فيما جئتكم به ﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى أطلقهم من أسرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم؛ فإنهم من سلالة نبي كريم إسرائيل، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن ﴿ قَالَ إِن كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ أى قال فرعون: لست بمصدقك فيما قلت، ولا بمطيعك فيما طلبت، فإن كانت معك حجة فأظهرها لنراها، إن كنت صادقاً فيما ادعيت .

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٣٤﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

قال على بن أبى طلحة<sup>(١)</sup> عن ابن عباس فى قوله: ﴿ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾: الحية الذكر. وكذا قال السدى، والضحاك، وفى حديث «الفتون»، من رواية يزيد بن هارون عن الأصعب بن زيد، عن القاسم بن أبى أيوب عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ ﴾ فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون أنها قاصدة إليه، اقتحم عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل .

وقال قتادة: تحولت حية عظيمة مثل المدينة .

وقال السدى فى قوله: ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ الثعبان: الذكر من الحيات، فاتحة فاها، واضعة لحيها، الأسفل فى الأرض، والأعلى على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه، فلما رآها ذعر منها، ووثب وأحدث، ولم يكن يحدث قبل ذلك، وصاح يا موسى، خذها وأنا أؤمن بك، وأرسل معك بنى إسرائيل، فأخذها موسى، عليه السلام، فعدت عصاً، وروى عن عكرمة عن ابن عباس نحو هذا .

وقال وهب بن منبه: لما دخل موسى على فرعون، قال له فرعون: أعرفك؟ قال: نعم، قال: ﴿ أَلَمْ

(١) أخرجه النسائي فى الكبرى (٤٠١/٦)، وأبو يعلى فى مسنده (٢٠/٥) .

تُرَبِّكَ فِينَا وَلِيَدًا؟ [الشعراء: ١٨] قال: فرد إليه موسى الذى رد، فقال فرعون: خذوه فبادر موسى ﴿قَالَ لَنْ عَسَاؤُا فِإِذَا هِىَ تَعْبَانٌ تُبِينٌ ۝٣٧﴾ فحملت على الناس فانهمزوا منها، فمات منهم خمسة وعشرون ألفا، قتل بعضهم بعضا، وقام فرعون منهزما حتى دخل البيت. رواه ابن جرير والإمام أحمد، فى كتابه «الزهد»، وابن أبى حاتم. وفيه غرابة فى سياقه، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فِإِذَا هِىَ بِيضَةٌ لِّلنَّظِيرِىنَ ۝٣٨﴾ أى أخرج يده من درعه بعد ما أدخلها فيه فإذا هى بيضاء تتلألا من غير برص ولا مرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ فَنَجَّحَ يَبْرَأَةَ مِنَ غَيْرِ سَوْءٍ ۝١٢﴾ الآية [النمل: ١٢]. وقال ابن عباس فى حديث «الفتون»: من غير سوء يعنى من غير برص، ثم أعادها إلى كفه، فعادت إلى لونها الأول. وكذا قال مجاهد وغير واحد.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ۝٣٩ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِن أَرْضِكَ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝٤٠﴾

أى قال الملأ - وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون - موافقين لقول فرعون فيه، بعدما رجع إليه روعه، واستقر على سريره مملكته بعد ذلك، قال للملأ حوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾، فوافقوا وقالوا كعقلته، وتشاوروا فى أمره، كيف يصنعون فى أمره، وكيف تكون حيلتهم فى إطفاء نوره وإخماد كلمته، وظهور كذبه وافتراءه، وتخوفوا أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون، فيكون ذلك سببا لظهوره عليهم، وإخراجه إياهم من أرضهم، والذى خافوا منه وقعوا فيه، كما قال تعالى: ﴿وَبُرِّى فِرْعَوْنَ وَهَمَكُنَّ بِمُؤَدَّيْهِمَا يَهُمُّ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦] فلما تشاوروا فى شأنه، واثتمروا بما فيه، اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم فى قوله تعالى.

﴿قَالُوا أَرْضِيهِ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۝٤١ يَا تَوَكَّلْ بِكُلِّ سَكِينٍ عَلِيمٍ ۝٤٢﴾

قال ابن عباس: ﴿أَرْضِيهِ»: أخره. وقال قتادة: احبسه. ﴿وَأَرْسِلْ﴾ أى ابعث ﴿فِى الْمَدَائِنِ﴾ أى فى الأقاليم ومدائن ملكك، ﴿حَاشِرِينَ﴾ أى من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم، وقد كان السحر فى زمانهم غالبا كثيرا ظاهرا، واعتقد من اعتقد منهم، وأوهم من أوهم منهم أن ما جاء به موسى، عليه السلام، من قبيل ما تشعبه سحرتهم؛ فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البيئات، كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى فَلْنَأْتِكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْتَةِ وَأَنَّ بِجَنَّةِ النَّاسِ سُبْحَى فَتَوَكَّلْ فِرْعَوْنَ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ [طه: ٥٧-٦٠] وقال تعالى ههنا:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۝٤٣ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لِنَ الْمَقْرِبِينَ ۝٤٤﴾

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى، عليه السلام، إن غلبوا موسى ليثبتهم وليعطيتهم عطاء جزيلًا. فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا، ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده، فلما توثقوا من فرعون لعنه الله:

﴿قَالُوا يَمْشِيْ اِمَّا اَنْ تُثَلِّفِيْ وَ اِمَّا اَنْ تُكُوْنِ نَحْنُ الثَّلٰثِيْنَ﴾ ﴿٦٥﴾ قَالَ اَلْقَوْا فَلَمَّا اَلْقَوْا سَحَرُوْا  
 اَعْيَبَ النَّاسِ وَاَسْتَهْبُوْهُمُ وَجَاءَهُو بِسِحْرِ عَظِيْمٍ ﴿٦٦﴾

هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام فى قولهم: ﴿ اِمَّا اَنْ تُثَلِّفِيْ وَ اِمَّا اَنْ تُكُوْنِ نَحْنُ الثَّلٰثِيْنَ ﴾  
 اى قبلك. كما قال فى الآيه الأخرى: ﴿ وَاِمَّا اَنْ تُكُوْنِ اَوَّلَ مَنْ اَلْفَى ﴾ [طه: ٦٥]. فقال لهم موسى، عليه  
 السلام: ﴿ اَلْقَوْا ﴾ اى: اتمم اولاً، قيل: الحكمة فى هذا - والله أعلم - ليرى الناس صنيعهم ويتأملوا،  
 فإذا فرغوا من بهرجهم ومحالهم، جاءهم الحق الواضح الجلى بعد التطلب له والانتظار منهم لمجيئه،  
 فيكون أوقع فى النفوس، وكذا كان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا اَلْقَوْا سَحَرُوْا اَعْيَبَ النَّاسِ وَاَسْتَهْبُوْهُمُ ﴾  
 اى خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة فى الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال، كما قال  
 تعالى: ﴿ فَاِذَا جِآلَهُمْ وَعَصِيْبُهُمْ يُجَيَّلُ اِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ اَنَّهُا تَعْنَى فَاَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى فَلَمَّا لَا تَخَفْ اِنَّكَ اَنْتَ  
 الْاَعْلَى وَاَلْفَى مَا فِي بَيْنِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوْا اِنَّمَا صَنَعُوْا كَيْدَ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّآئِرُ حَيْثُ اَنْتَ ﴾ [طه: ٦٦-٦٩].

قال سفيان بن عيينة: حدثنا أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس، ألقوا حبلاً غلاظاً وخشباً طوالاً.  
 قال: فأقبلت يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى. وقال محمد بن إسحاق: صف خمسة عشر ألف  
 ساحر، مع كل ساحر جباله وعصيه، وخرج موسى، عليه السلام، معه أخوه يتكى على عصاه، حتى  
 أتى الجمع، وفرعون فى مجلسه مع أشرف أهل مملكته، ثم قال السحرة: ﴿ يَمْشِيْ اِمَّا اَنْ تُثَلِّفِيْ وَ اِمَّا اَنْ  
 تُكُوْنِ اَوَّلَ مَنْ اَلْفَى قَالَ بَلْ اَلْقَوْا فَاِذَا جِآلَهُمْ وَعَصِيْبُهُمْ ﴾ [طه: ٦٥-٦٦]، فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر  
 موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد، ثم ألقى كل رجل منهم ما فى يده من الجبال والعصى،  
 فإذا حيات كأمثال الجبال، قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضاً. وقال السدى: كانوا بضعة وثلاثين  
 ألف رجل، وليس رجل منهم إلا ومعه جبل وعصا، ﴿ فَلَمَّا اَلْقَوْا سَحَرُوْا اَعْيَبَ النَّاسِ وَاَسْتَهْبُوْهُمُ ﴾  
 يقول: فرقهم اى من الفرق.

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن عليه عن هشام الدستوائى حدثنا القاسم بن  
 أبى بزة قال: جمع فرعون سبعين ألف ساحر، فألقوا سبعين ألف جبل، وسبعين ألف عصا، حتى  
 جعل يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَجَاءَهُو بِسِحْرِ عَظِيْمٍ ﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَا اِلَى مُّوسَى اَنْ اَلْقِ عَصَاكَ فَاِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْكُوْنُ﴾ ﴿٦٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوْا  
 يَعْمَلُوْنَ ﴿٦٨﴾ فَاسْلُبُوْا هٰذَاكَ وَاَنْقَلِبُوْا صٰغِرِيْنَ ﴿٦٩﴾ وَاَلْفَى السَّحْرَةَ سٰجِدِيْنَ ﴿٧٠﴾ قَالُوْا ءَاَمَنَّا بِرَبِّ الْعٰلَمِيْنَ  
 ﴿٧١﴾ رَبِّ مُّوسَى وَهٰرُوْنَ ﴿٧٢﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى، عليه السلام، فى ذلك الموقف العظيم، الذى  
 فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يلقى ما فى يمينه وهى عصاه، ﴿ فَاِذَا هِيَ تَلْقَفُ ﴾ اى  
 تاكل ﴿ مَا يَأْكُوْنُ ﴾ اى ما يلقونه ويوهمون أنه حق، وهو باطل. قال ابن عباس: فجعلت لا تمر بشيء  
 من حبالهم ولا من خشبهم إلا التقمته، فعرفت السحرة أن هذا شيء من السماء، ليس هذا بسحر،  
 فخرروا سجداً وقالوا: ﴿ ءَاَمَنَّا بِرَبِّ الْعٰلَمِيْنَ رَبِّ مُّوسَى وَهٰرُوْنَ ﴾.

وقال محمد بن إسحاق: جعلت تبتع تلك الجبال والعصى واحدة واحدة، حتى ما يرى بالوادى

قليل ولا كثير مما القوا، ثم أخذها موسى، فإذا هي عصا في يده كما كانت، ووقع السحرة سجداً ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَكُونِي مِنَ السَّاجِدِينَ﴾، لو كان هذا ساحراً ما غلبنا. وقال القاسم بن أبي بزة: أوحى الله إليه أن ألق عصاك، فألقى عصاه، فإذا هي ثعبان مبین فاغر فاه، يبتلع حبالهم وعصيهم، فألقى السحرة عند ذلك سجداً، فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلها.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ يَا مَرْيَمُ بِهِ قَبْلُ أَنْ مَأَذَّنَ لَكُمْ أَنْ هَذَا لَكُمْ مَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [٣٦] ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّتَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٣٧] ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَهُ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [٣٨] ﴿وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ يَا مَرْيَمُ يَا بِنْتُ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبِّنَا أَنْفَعْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّأَ مُسْلِمِينَ﴾ [٣٩]

يخبر تعالى عما توعد به فرعون، لعنه الله، السحرة لما آمنوا بموسى، عليه السلام، وما أظهره للناس من كيد ومكره في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَكُمْ مَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أى إن غلبته لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضاً منكم لذلك، كقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُ لَكَيْدٌ كَرِيمٌ الَّذِي عَلَّمَكَ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]، وهو يعلم وكل من له لب أن هذا الذى قاله من أبطل الباطل؛ فإن موسى، عليه السلام، بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون فى مدائن ملكه ومعاملته سلطته، فجمع سحرة متفوقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، ممن اختار هو والملا من قومه، وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل؛ ولهذا قد كانوا من أحرص الناس على ذلك، وعلى الظهور فى مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون، وموسى، عليه السلام، لا يعرف أحداً منهم ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تستراً وتديساً على رعا دولته وجهلتهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، فإن قوما صدقوه فى قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَخْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] من أجهل خلق الله وأضلهم. وقال السدى فى تفسيره بإسناده المشهور عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَكُمْ مَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ﴾ قال: التقى موسى، عليه السلام، وأمير السحرة، فقال له موسى: أرأيتك إن غلبت أتؤمن بى، وتشهد أن ما جئت به حق؟ قال الساحر: لأتبعن غداً بسحر لا يغلبه سحر، فوالله لئن غلبتني لأؤمنن بك ولأشهدن أنك حق، وفرعون ينظر إليهما، قالوا: فلماذا قال ما قال.

وقوله: ﴿لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أى تجتمعوا أنتم وهو، وتكون لكم دولة وصوله، وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء، وتكون الدولة والتصرف لكم، ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أى ما أصنع بكم. ثم فسر هذا الوعيد بقوله: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ يعنى: يقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّتَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وقال فى الآية الأخرى: ﴿فِي جُدُوعِ الْأَنْخَالِ﴾ [طه: ٧١] أى على الجنوع. قال ابن عباس: وكان أول من صلب، وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف فرعون.

وقول السحرة: ﴿إِنَّا إِلَهُ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أى قد تحققنا أننا إليه راجعون، وعذابه أشد من عذابك،

ونكاله على ما تدعوننا إليه، اليوم وما أكرهتنا عليه من السحر، أعظم من نكالك، فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب الله، ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا أَرِنَا صَبْرًا﴾ أى: عمنا بالصبر على دينك، والثبات عليه، ﴿وَوَقْنَا مُسْلِمِينَ﴾ أى: متابعين لنيك موسى، عليه السلام، وقالوا لفرعون: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا إِنَّمَا لَدِينَا اللَّهُ إِنَّا بِأَن نُّغَيِّرَ لَكَ حَتَمَاتِنَا وَمَا أُكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَابْتَلَىٰ إِيَّاهُمْ مِّنْ يُاتِي رَبَّهُمْ جَحِيمًا فَإِنَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ وَمَنْ يُؤْمَرْ فَدَعِلِ السَّلْبِ حَتَّىٰ تَأْتِيكَ لَهُمْ الذَّرْحَةُ أَلْوَىٰ﴾ [طه: ٧٢-٧٥]، فكانوا فى أول النهار سحرة، فصاروا فى آخره شهداء بررة. قال ابن عباس وعبيد بن عمير وقتادة وابن جريج: كانوا فى أول النهار سحرة، وفى آخره شهداء.

﴿وَقَالَ الْكَلْبُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُؤُا مَوْسَىٰ وَقَوْمَهُ يُلْفِسُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرُكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقْبِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٧٨﴾

يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وملؤه، وما أضمره لموسى، عليه السلام، وقومه من الأذى والبغضة: ﴿وَقَالَ الْكَلْبُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ أى لفرعون ﴿أَتَدْرُؤُا مَوْسَىٰ وَقَوْمَهُ﴾ أى: أتدعهم ليفسدوا فى الأرض؟ أى يفسدوا أهل رعيتك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك، يا لله العجب صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه إلا إن فرعون وقومه هم المفسدون، ولكن لا يشعرون، ولهذا قالوا: ﴿وَيَذَرُكَ وَآلِهَتَكَ﴾، قال بعضهم: «الواو» هاهنا حالية، أى: أتذرهم وقومه يفسدون فى الأرض وقد ترك عبادتك؟ وقرأ ذلك أبى بن كعب: «وقد تركوك أن يعبدوك وآلهتك»، حكاة ابن جرير. وقال آخرون: هى عاطفة، أى أتدعهم يصنعون من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى ترك آلهتك؟ وقرأ بعضهم: «الإهتك» أى عبادتك، وروى ذلك عن ابن عباس ومجاهد، وغيره، وعلى القراءة الأولى قال بعضهم: كان لفرعون إله يعبده.

قال الحسن البصرى: كان لفرعون إله يعبده فى السر. وقال فى رواية أخرى: كان له جنانة فى عنقه معلقة يسجد لها.

وقال السدى فى قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُكَ وَآلِهَتَكَ﴾: وآلهته، فيما زعم ابن عباس، كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها، فلذلك أخرج لهم السامرى عجلاً جسداً له خوار. فأجابهم فرعون فيما سأله بقوله: ﴿سَنُقْبِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾، وهذا أمر ثان بهذا الصنيع، وقد كان نكل بهم قبل ولادة موسى، عليه السلام، حذراً من وجوده، فكان خلاف ما رآه وضد ما قصده فرعون.

وهكذا عومل فى صنيعه أيضاً، لما أراد إذلال، بنى إسرائيل وقهرهم فجاء الأمر على خلاف ما أراد، أعزهم الله وأذله، وأرغم أنفه، وأغرقه وجنوده.

ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبنى إسرائيل ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾،

ووعدهم بالعاقبة، وأن الدار ستصير لهم فى قوله: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا أَي قد فعلوا بنا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى، ومن بعد ذلك، فقال منبها لهم على حالهم الحاضر وما يصيرون إليه فى ثانى الحال: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ﴾ الآية، وهذا تخصيص لهم على العزم على الشكر، عند حلول النعم وزوال النقم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقِصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ٣٦ ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُنَا سَيِّئَةٌ يَطَّيِّرُوا يُمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ آلَا إِنَّمَا ظَلَمْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٣٧

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أى اختبرناهم وامتحانهم وابتليناهم ﴿بِالسِّنِينَ﴾ وهى سنى الجوع بسبب قلة الزروع ﴿وَنَقِصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ قال مجاهد: وهو دون ذلك.

وقال أبو إسحاق، عن رجاء بن حيوة: كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ أى من الخصب والرزق ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أى: هذا لنا بما نستحقه، ﴿وَإِنْ تُصِيبُنَا سَيِّئَةٌ﴾ أى جذب وقحط ﴿يَطَّيِّرُوا يُمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ أى: هذا بسببهم وما جاءوا به. ﴿آلَا إِنَّمَا ظَلَمْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: ﴿آلَا إِنَّمَا ظَلَمْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يقول: مصائبهم عند الله ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقال ابن جريج، عن ابن عباس قال: ﴿آلَا إِنَّمَا ظَلَمْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أى: إلا من قبل الله.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَانَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ يَمُوسَى ۖ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَ ۗ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ ٣٨ ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يُمُوسَى أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيُنزِلَ عَلَيْنَا مِثْرًا لِنُؤْمِنَ لَكَ وَلَتُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ٣٩ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِلِقَاؤِهِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ ٤٠

هذا إخبار من الله، عز وجل، عن تمرد قوم فرعون وعتوهم، وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل فى قولهم: ﴿مَهْمَا تَأْتَانَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ يَمُوسَى﴾ يقولون: أى آية جئتنا بها ودلالة وحجة أتمتها، رددناها فلا نقبلها منك، ولا نؤمن بك ولا بما جئت به، قال الله تعالى: ﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾. اختلفوا فى معناه، فعن ابن عباس فى رواية: كثرة الأمطار المفارقة المتلفة للزروع والشمار، وبه قال الضحاك بن مزاحم، وعن ابن عباس فى رواية أخرى: هو كثرة الموت. وكذا قال عطاء. وقال مجاهد: ﴿الطُّوفَانَ﴾: الماء، والطاعون على كل حال.

وقال ابن جرير (١): حدثنا ابن هشام الرفاعى، حدثنا يحيى بن يمان حدثنا المنهال بن خليفة عن الحجاج عن الحكم بن مينا عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الطوفان الموت».

(١) رواه الطبرى (٣١/٩) قال الحافظ فى الفتح (٣٠٠/٨): عند ابن مردويه بإسنادين ضعيفين.

وكذا رواه ابن مردويه، من حديث يحيى بن يمان به، وهو حديث غريب. وقال ابن عباس فى رواية أخرى: هو أمر من الله طاف بهم، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا كَثُرَتْ عَلَيْهَا مُسَاهِدَاتُ مَن رَّبِّكَ وَنُمِرَ نَائِبُونَ﴾ [القلم: ١٩-٢٠]. وأما الجراد فمعروف مشهور، وهو مأكول؛ لما ثبت فى الصحيحين<sup>(١)</sup> عن أبى يعفور قال: سألت عبد الله بن أبى أوفى عن الجراد، فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد. وروى الشافعى وأحمد بن حنبل وابن ماجه<sup>(٢)</sup> من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبىه عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: «أحلت لنا ميتتان ودمان: الحوت والجراد، والكبد والطحال». ورواه أبو القاسم البغوى، عن داود بن رشيد عن سويد بن عبد العزيز عن أبى تمام الأبلى عن زيد بن أسلم عن ابن عمر مرفوعاً مثله، وروى أبو داود<sup>(٣)</sup> عن محمد بن الفرغ عن محمد بن زبير قان الأهوازى عن سليمان التيمى عن أبى عثمان عن سلمان قال: سئل رسول الله ﷺ عن الجراد فقال: «أكثر جنود الله، لا آكله، ولا أحرمه». وإنما تركه، عليه السلام، لأنه كان يعافه، كما عافت نفسه الشريفة أكل الضب، وأذن فيه. وقد روى الحافظ ابن عساكر فى جزء جمعه فى الجراد، من حديث أبى سعيد الحسن بن على العدوى حدثنا نصر بن يحيى بن سعيد، حدثنا يحيى بن خالد عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ لا يأكل الجراد، ولا الكلوتين، ولا الضب، من غير أن يحرمها، أما الجراد: فرجس وعذاب؛ وأما الكلوتان: فلقربهما من البول. وأما الضب فقال: «أتخوف أن يكون مسخاً» ثم قال: غريب، لم أكتبه إلا من هذا الوجه. وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، يشتهي ويحبه، فروى عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أن عمر سئل عن الجراد فقال: ليت أن عندنا منه قفعة أو قفعتين نأكله. وروى ابن ماجه<sup>(٤)</sup> حدثنا أحمد بن منيع عن سفيان بن عيينة عن أبى سعد سعيد بن المرزبان البقال، سمع أنس بن مالك يقول: كان أزواج النبى ﷺ يتهادين الجراد على الأطباق. وقال أبو القاسم البغوى: حدثنا داود بن رشيد، حدثنا بقر بن الوليد عن يحيى بن يزيد القينى حدثنى أبى عن صدق بن عجلان عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مريم بنت عمران، عليها السلام، سألت ربها عز وجل، أن يطعمها لحمًا لا دم له، فأطعمها الجراد، فقالت: اللهم أعشه بغير رضاع، وتابع بينه بغير شياخ». وقال نمير: الشياخ: الصوت. وقال أبو بكر بن أبى داود: حدثنا أبو تقى هشام بن عبد الملك المزنى، حدثنا بقر بن الوليد حدثنا إسماعيل بن عياش عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبى زهير النميرى قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقاتلوا الجراد، فإنه جند الله الأعظم». غريب جداً<sup>(٥)</sup>.

(١) أخرجه البخاري (٥٤٩٥)، ومسلم (١٩٥٢)، وأبو داود (٣٨١٢)، والترمذي برقم (١٨٢٢)، والنسائي برقم (٤٣٥٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٢١٨)، وأحمد (٥٦٩٠).

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه (٣٥٧/٣) حديث (٣٨١٣) انظر: ضعيف الجامع رقم (١٠٩٧).

(٤) أخرجه ابن ماجه (١٠٧٣/٢)، حديث (٣٢٢٠).

فى إسناده سعيد بن المرزبان، وهو ضعيف. انظر: مصباح الزجاجة (٢٣٧/٣).

(٥) رواه الطبراني فى الكبير (١٤١/٨)، حديث (٧٦٣١) عن أبى أمامة، وأورده الهيثمى فى المجمع (٣٩/٤) وقال: رواه الطبراني فى الكبير وفيه بقرعة وهو ثقة ولكنه مدلس.

وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ﴾ قال: كانت تأكل مسامير أبوابهم، وتدع الخشب. وروى ابن عساکر من حديث علي بن زيد الخرائطي، عن محمد بن كثير سمعت الأوزاعي يقول: خرجت إلى الصحراء، فإذا أنا برجل من جراد في السماء، وإذا برجل راكب على جرادة منها، وهو شاك في الحديد، وكلما قال بيده هكذا، مال الجراد مع يده، وهو يقول: الدنيا باطل باطل ما فيها، الدنيا باطل باطل ما فيها، الدنيا باطل باطل ما فيها.

وروى الحافظ أبو الفرج المعافى بن زكريا الجريري، حدثنا محمد بن الحسن بن زياد، حدثنا أحمد بن عبد الرحيم أخبرنا وكيع عن الأعمش أنبأنا عامر قال: سئل شريح القاضي عن الجراد، فقال: قبيح الله الجرادة، فيها خلقة سبعة جبابرة: رأسها رأس فرس، وعنقها عنق ثور، وصدرها صدر أسد، وجناحها جناح نسر، ورجلاها رجل جمل، وذنبها ذنب حية، ويطنها بطن عقرب. وقدمنا عند قوله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ صَيِّدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلنَّيَّارِ﴾ [المائدة: ٩٦] حديث حماد بن سلمة، عن أبي المهزم عن أبي هريرة قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في حج أو عمرة فاستقبلنا رجل جراد فجعلنا نضربه بالعصى، ونحن محرمون، فسألنا رسول الله ﷺ فقال: <sup>(١)</sup> «لا بأس بصيد البحر». وروى ابن ماجه <sup>(٢)</sup>، عن هارون الحماني عن هشام بن القاسم عن زياد بن عبد الله بن علاثة عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أنس وجابر عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا دعا على الجراد قال: «اللهم أهلك كبارها، واقتل صغارها، وأفسد بيضه، واقطع دابره، وخذ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا، إنك سميع الدعاء». فقال له جابر: يا رسول الله، أتدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره؟ فقال: «إنما هو نثرة حوت في البحر». قال هشام: أخبرني زياد أنه أخبره من رآه ينثره الحوت قال من حقق ذلك: إن السمك إذا باض في ساحل البحر فنضب الماء عنه وبدا للشمس، أنه يفقس كله جرادًا طيارًا. وقدمنا عند قوله: ﴿إِلَّا أُمَّةٌ أُنثَاكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨]، حديث عمر، رضى الله عنه <sup>(٣)</sup>: «أن الله خلق ألف أمة، ستمائة في البحر وأربعمائة في البر، وإن أولها هلاكًا الجراد». وقال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا يزيد بن المبارك، حدثنا عبد الرحمن بن قيس، حدثنا سالم بن سالم، حدثنا أبو المغيرة الجوزجاني محمد بن مالك، عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا وباء مع السيف، ولا نجاء مع الجراد». حديث غريب.

وأما ﴿وَالْقُمَّلَ﴾ فمن ابن عباس: هو السوس الذي يخرج من الحنطة. وعنه أنه الدبا - وهو الجراد الصغير الذي لا أجنحة له، وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة وعن الحسن وسعيد بن جبير: ﴿وَالْقُمَّلَ﴾: دواب سود صغار. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَالْقُمَّلَ﴾: البراغيث. وقال ابن جرير: «القمل» جمع واحدها «قملة»، وهي دابة تشبه القمل، تأكلها الإبل، فيما بلغني، وهي التي عناها الأعشى بقوله:

قوم يعالج قملًا أبناؤهم      وسلاسلًا أجدًا وبنابًا موصلدا

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٢٢١)، والترمذي، حديث (١٨٢٣).

(٣) سبق تخريجه.

قال : وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة يزعم أن القمل عند العرب «الحمنان» ، واحدهتا «حمنانة» ، وهي صغار القردان فوق القمقامة .

وقال الإمام أبو جعفر ابن جرير : حدثنا ابن حميد الرازي ، حدثنا يعقوب القمي ، عن جعفر بن أبي المغيرة ، عن سعيد بن جبير قال : لما أتى موسى ، عليه السلام ، فرعون قال له : أرسل معي بنى إسرائيل ، فلم يرسلهم فأرسل الله عليهم الطوفان - وهو المطر - فصب عليهم منه شيئاً ، خافوا أن يكون عذاباً ، فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا المطر ، فنؤمن لك ، ونرسل معك بنى إسرائيل ، فدعا ربه ، فكشف عنهم فلم يؤمنوا ، ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل ، فأثبت لهم في تلك السنة شيئاً لم ينبت قبل ذلك من الزروع والثمار والكلأ ، فقالوا : هذا ما كنا نتمنى ، فأرسل الله عليهم الجراد ، فسلبه على الكلأ ، فلما رأوا أثره في الكلأ ، عرفوا أنه لا يبقى الزرع ، فقالوا : يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا الجراد فنؤمن لك ، ونرسل معك بنى إسرائيل ، فدعا ربه فكشف عنهم الجراد فلم يؤمنوا ، ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل ، فداسوا وأحزروا في البيوت ، فقالوا : قد أحزنا ، فأرسل الله عليهم القمل - وهو السوس الذي يخرج منه - فكان الرجل يخرج عشرة أجرية إلى الرحي ، فلا يرد منها إلا ثلاثة أقفزة . فقالوا : يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا القمل ، فنؤمن لك ، ونرسل معك بنى إسرائيل ، فدعا ربه ، فكشف عنهم ، فأبوا أن يرسلوا معه بنى إسرائيل . فبينما هو جالس عند فرعون ، إذ سمع نقيق ضفدع ، فقال لفرعون : ما تلقى أنت وقومك من هذا؟ فقال : وما عسى أن يكون كيد هذا؟ فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ، ويهم أن يتكلم فيشب الضفدع في فيه ، فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن ، لك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا وأرسل الله عليهم الدم فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار وما كان في أوعيتهم وجدوه دمًا عبيطًا فشكوا إلى فرعون ، فقالوا : إنا قد ابتلينا بالدم وليس لنا شراب فقال : إنه قد سحركم ، فقالوا : من أين سحرنا ، ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا وجدناه دمًا عبيطًا؟ فأتوه وقالوا : يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ، ونرسل معك بنى إسرائيل ، فدعا ربه ، فكشف عنهم ، فلم يؤمنوا ، ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل . وقد روى نحو هذا عن ابن عباس والسدي وقتادة وغير واحد من علماء السلف أنه أخبر بذلك .

وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله : فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً مغلولاً ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر ، فتابع الله عليه الآيات ، فأخذ بالسنين ، وأرسل عليه الطوفان ، ثم الجراد ، ثم القمل ، ثم الضفادع ، ثم الدم آيات مفصلات . فأرسل الطوفان - وهو الماء ففاض على وجه الأرض - ثم ركذ ، لا يقدر على أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئاً ، حتى جهدوا جوعاً ، فلما بلغهم ذلك «قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَمَّا عَاهَدَ عِنْدَكَ لَئِن كُنْتُمْ لَتُؤْمِنُنَّ لَكُمْ وَلَنُرْسِلَنَّ مَلَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ» فدعا موسى ربه ، فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر ، فيما بلغني ، حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد ، حتى تقع دورهم ومساكنهم ، فقالوا مثل ما قالوا ، فدعا ربه ، فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم القمل ، فذكر لى أن موسى ، عليه السلام ، أمر أن يمشی إلى كثيب حتى

يضره بعصاه، فمشى إلى كتيب أهيل عظيم، فضره بها، فاثال عليهم قملاً، حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار، فلما جهدهم قالوا مثل ما قالوا فدعاه ربه فكشف عنهم، فلم يفواله بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الضفادع، فملأت البيوت والأطعمة والآنية فلا يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا، فسأل ربه فكشف عنهم فلم يفواله بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دماً لا يستقون من بئر ولا نهر، ولا يغترفون من إناء، إلا عاد دماً عيطاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور المروزي أنبأنا التضر أنبأنا إسرائيل أنبأنا جابر بن يزيد عن عكرمة عن عبيد الله بن عمرو قال: لا تقتلوا الضفادع، فإنها لما أرسلت على قوم فرعون، انطلق ضفدع منها فوق في تنور فيه نار، يطلب بذلك مرضاة الله، فأبدلهن الله من هذا أبرد شيء يعلمه من الماء، وجعل نقيقهن التسيب، وروى من طريق عكرمة، عن ابن عباس، نحوه. وقال زيد بن أسلم: يعني بالدم: الرعاف، رواه ابن أبي حاتم.

﴿فَأَنقَمْنَا مِنْهُم فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنَّا غَفِيلِينَ ﴿٢٥﴾ وَأَزْرَقْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرُوكِ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا الَّتِي بَنَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة، انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم، وهو البحر الذي فرقه لموسى، فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم، ففرقوا عن آخرهم، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها.

وأخبر تعالى أنه أورت القوم الذين كانوا يستضعفون - وهم بنو إسرائيل - ﴿مَشْرُوكِ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَوَيْدٌ أَنْ تَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَيَمْتَلِكُمْ أَيْمَةٌ وَيَحْتَلِكُمْ الْوَارِثِينَ وَتُمْكِنَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَرَبِّي فِرْعَوْنُ وَهَمَّكِنَ وَخُودُهُمَا مِنْهُمَ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٥-٢٦] وقال تعالى: ﴿كَتَمَ تَرْكُؤًا مِنْ جَنَّتِي وَعِيُونِي وَدُرُوعِي وَمَقَارِي كَرِيمِي وَصَمَوُ كَانُوا فِيهَا فَكَيْهِنَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨] وعن الحسن البصري وقناة، في قوله: ﴿مَشْرُوكِ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا الَّتِي بَنَرَكْنَا فِيهَا﴾ يعني: الشام.

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ قال مجاهد وابن جرير: وهي قوله تعالى: ﴿وَوَيْدٌ أَنْ تَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَيَمْتَلِكُمْ أَيْمَةٌ وَيَحْتَلِكُمْ الْوَارِثِينَ وَتُمْكِنَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَرَبِّي فِرْعَوْنُ وَهَمَّكِنَ وَخُودُهُمَا مِنْهُمَ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٥-٢٦]. وقوله: ﴿وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ أي وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: ﴿يَعْرِشُونَ﴾: يبنون.



﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُتُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مَوْسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٠١﴾ إِنَّ هَذِهِ أَمْثَلُ مَثَلِ مَا هُمْ فِيهِ وَنَطِيلٌ مَّا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

يخبر تعالى عما قاله جهلة بنى إسرائيل لموسى، عليه السلام، حين جاوزوا البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ﴿فَأَتَوْا﴾ أى فمروا ﴿عَلَى قَوْمٍ يَمْكُتُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَهُمْ﴾ قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين. وقيل: كانوا من لخم. قال ابن جرير: وكانوا يعبدون أصناماً على صور البقر؛ فلهذا أثار ذلك شبهة لهم فى عبادتهم العجل بعد ذلك فقالوا: ﴿يَا مَوْسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أى تجهلون عظمة الله وجلاله، وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل ﴿إِنَّ هَذِهِ أَمْثَلُ مَثَلِ مَا هُمْ فِيهِ﴾ أى هالك ﴿وَنَطِيلٌ مَّا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾.

وروى الإمام أبو جعفر ابن جرير فى تفسير هذه الآية من حديث محمد بن إسحاق وعقيل ومعمر كلهم عن الزهرى عن سنان بن أبى سنان عن أبى واقد الليثى أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين قال: وكان للكفار سدرة يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة قال: فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال: «قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَذِهِ أَمْثَلُ مَثَلِ مَا هُمْ فِيهِ وَنَطِيلٌ مَّا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾»<sup>(١)</sup>. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن سنان بن أبى سنان الدبلى عن أبى واقد الليثى: قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين، فمررنا بسدرة، فقلت: يا نبي الله، اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة، ويعكفون حولها، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ إنكم تركبون سنن من قبلكم». أوردته ابن جرير ورواه ابن أبى حاتم، من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى، عن أبيه، عن جده مرفوعاً.

﴿قَالَ أَعْيَرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذْ أُنجَيْنَاكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْمَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾

يذكرهم موسى، عليه السلام، نعم الله عليهم، من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره، وما كانوا فيه من الهوان والذلة، وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم، والنظر إليه فى حال هوانه وهلاكه، وغرقه ودماره، وقد تقدم تفسيرها فى البقرة.



(١) أخرجه الترمذي. (٢١٨٠)، وأحمد، حديث (٢١٣٩٠).

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ فِتْمَمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى ممتثلاً على بنى إسرائيل، بما حصل لهم من الهداية، بتكليمه موسى، عليه السلام، وإعطائه التوراة، وفيها أحكامهم وتفصيل شرعهم، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة. قال المفسرون: فصامها موسى، عليه السلام، وطواها فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة، فأمره الله تعالى أن يكمل بعشرة أربعين.

وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي؟ فالأكثر على أن الثلاثين هي ذو القعدة، والعشر عشر ذي الحجة، قاله مجاهد ومسروق وابن جريج وروى عن ابن عباس وغيره. فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى، عليه السلام، وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿أَيُّومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. فلما تم الميقات وعزم موسى على الذهاب إلى الطور، كما قال تعالى: ﴿يَبْنَوي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَجَبْتَكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ حَيْبَ الطُّورِ الْآتِيْنَ﴾ [طه: ٨٠] الآية، فحينئذ استخلف موسى عليه السلام على بنى إسرائيل أخاه هارون، ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد. وهذا تبيين وتذكير، وإلا فهارون، عليه السلام، نبي شريف كريم على الله، له وجاهة وجلالة، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر الأنبياء.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيَنَّ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيَنَّ فَلَمَّا بَلَغَ رُؤْيُومَهُ لِنَجْعَلِ الْجَبَلَ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾

يخبر تعالى عن موسى، عليه السلام، أنه لما جاء لميقات الله تعالى، وحصل له التكليم من الله تعالى، سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيَنَّ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيَنَّ فَلَمَّا بَلَغَ رُؤْيُومَهُ لِنَجْعَلِ الْجَبَلَ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. وقد تقدم ذلك في الأنعام.

وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى، عليه السلام: يا موسى، إنه لا يراني حتى إلامات، ولا يابس إلا تدهده؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ رُؤْيُومَهُ لِنَجْعَلِ الْجَبَلَ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوِقًا﴾.

قال أبو جعفر بن جرير الطبري<sup>(١)</sup> في تفسير هذه الآية: حدثنا أحمد بن سهيل الواسطي، حدثنا قرة بن عيسى، حدثنا الأعمش عن رجل عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لما تجلى ربه للجبل، أشار

بأصبغه، فجعله دكًا». وأرانا أبو إسماعيل بأصبغه السبابة. هذا الإسناد فيه رجل مبهم لم يسم، ثم قال: حدثني المثنى، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد بن ليث عن أنس أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا بَجَلْنَا رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَمَلًا دَكًّا﴾ قال: «هكذا بأصبغه - ووضع النبي ﷺ أصبغه الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر - فساخ الجبل». هكذا وقع في هذه الرواية «حماد بن سلمة عن ليث عن أنس»، والمشهور: «حماد بن سلمة، عن ثابت عن أنس»، كما قال ابن جرير: حدثني المثنى حدثنا هذبة بن خالد حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا بَجَلْنَا رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَمَلًا دَكًّا﴾ قال: ووضع الإبهام قريبًا من طرف خنصره، قال: «فساخ الجبل» - قال حميد لثابت: يقول هكذا؟ فرفع ثابت يده فضرب صدر حميد، وقال: يقول رسول الله ﷺ ويقول أنس، وأنا أكتمه؟. وهكذا رواه الإمام أحمد في مسنده: حدثنا أبو المثنى معاذ بن معاذ العنبري حدثنا حماد بن سلمة حدثنا ثابت البناني عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَلَمَّا بَجَلْنَا رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ قال: «هكذا» - يعني أنه أخرج طرف الخنصر - قال أحمد: أرانا معاذ، فقال له حميد الطويل: ما تريد إلى هذا يا أبا محمد؟ قال: فضرب صدره ضربة شديدة وقال: من أنت يا أبا حميد؟! وما أنت يا حميد؟! يحدثني به أنس بن مالك عن النبي ﷺ، يقول: ما تريد إليه؟!.

وهكذا رواه الترمذى في تفسير هذه الآية عن عبد الوهاب بن الحكم الوراق عن معاذ بن معاذ به. وعن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي عن سليمان بن حرب عن حماد بن سلمة به. ثم قال: هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث حمادو وهكذا رواه الحاكم في مستدركه من طرق، عن حماد بن سلمة به. وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. ورواه أبو محمد بن الحسن بن محمد بن علي الخلال عن محمد بن علي بن سويد عن أبي القاسم البغوي عن هذبة بن خالد عن حماد بن سلمة فذكره وقال: هذا إسناد صحيح لا علة فيه. وقد رواه داود بن المحبر عن شعبة عن ثابت عن أنس مرفوعًا، وهذا ليس بشيء، لأن داود بن المحبر كذاب، رواه الحفاظ أبو القاسم الطبراني وأبو بكر بن مردويه من طريقين عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس مرفوعًا بنحوه وأسند ابن مردويه من طريق ابن البيلماني عن أبيه عن ابن عمر مرفوعًا ولا يصح أيضًا. رواه الترمذى وصححه الحاكم، وقال: على شرط مسلم. وقال السدي: عن عكرمة عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَجَلْنَا رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ قال: ما تجلى منه إلا قدر الخنصر ﴿جَمَلًا دَكًّا﴾ قال: ترابًا ﴿وَحَرَّ مَوْسَى صَوْقًا﴾ قال: مغشيا عليه، رواه ابن جرير. وقال قتادة: ﴿وَحَرَّ مَوْسَى صَوْقًا﴾ قال: ميتًا. وقال سفیان الثوري: ساخ الجبل في الأرض، حتى وقع في البحر فهو يذهب معه، وقال سنيد: عن حجاج بن محمد الأعور، عن أبي بكر الهذلي ﴿فَلَمَّا بَجَلْنَا رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَمَلًا دَكًّا﴾: انقمر فدخل تحت الأرض، فلا يظهر إلى يوم القيامة. وجاء في بعض الأخبار أنه ساخ في الأرض، فهو يهوى فيها إلى يوم القيامة، رواه ابن مردويه.

وقال ابن أبي حاتم<sup>(١)</sup>: حدثنا عمر بن شبة حدثنا محمد بن يحيى أبو غسان الكنانى حدثنا عبد

(١) أورده الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١٠/٤٤٠) عن أنس وقال: هذا الحديث غريب جدًا ولم أكتبه إلا بهذا الإسناد.

العزير بن عمران عن معاوية بن عبد الله عن الجلد بن أيوب عن معاوية بن قره عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «لما تجلى الله للجبال، طارت لعظمته ستة أجبل، فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة، بالمدينة: أحد، وورقان، ورضوى. ووقع بمكة: حراء، وثبير، وثور». وهذا حديث غريب، بل منكر. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن محمد بن عبد الله بن أبي الثلج حدثنا الهيثم بن خارجة حدثنا عثمان بن حصين بن العلاف عن عروة بن رويم قال: كانت الجبال قبل أن يتجلى الله لموسى على الطور صماء ملساً، فلما تجلى الله لموسى على الطور دك، وتفطرت الجبال فصارت الشقوق والكهوف. وقال الربيع بن أنس: «فَلَمَّا بَجَلْنَا رَبَّنَا لِلْجَبَلِ جَعَلَهُمْ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوْعًا»، وذلك أن الجبل حين كشف الغطاء ورأى النور، صار مثل دك من الدكاك. وقال بعضهم: «جَعَلَهُمْ دَكًّا» أى: فَتَّه.

وقال مجاهد فى قوله: «وَلَكِنْ أَنْظَرْنَا إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَمَرَّ مَكَاتَمَ فَسَوْفَ تَرِنُنِي»: فإنه أكبر منك وأشد خلقاً «فَلَمَّا بَجَلْنَا رَبَّنَا لِلْجَبَلِ» فنظر إلى الجبل لا يتمالك، وأقبل الجبل فدك على أوله، ورأى موسى ما يصنع الجبل، فخر صعفاً. وقال عكرمة: «جَعَلَهُمْ دَكًّا» قال: نظر الله إلى الجبل، فصار صحراء تراباً. وقد قرأ بهذه القراءة بعض القراء، واختارها ابن جرير، وقد ورد فيها حديث مرفوع، رواه ابن مردويه. والمعروف أن «الصعق» هو الغشى وهنا كما فسره ابن عباس وغيره، لا كما فسره قتادة بالموت، وإن كان صحيحاً فى اللغة، كقوله تعالى: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم بِنُظُرَيْنِ» [الزمر: ٦٨]، فإن هناك قرينة تدل على الموت كما أن هنا قرينة تدل على الغشى، وهى قوله: «فَلَمَّا أَفَاقَ»، والإفاقة إنما تكون من غشى.

«قَالَ سُبْحَانَكَ» تنزيهاً وتعظيماً وإجلالاً أن يراه أحد فى الدنيا إلا مات. وقوله: «بَثَّ إِلَيْكَ» قال مجاهد: أن أسألك الرؤية «وَأَنَا أَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ»، قال ابن عباس ومجاهد: من بنى إسرائيل. واختاره ابن جرير. وفى رواية أخرى عن ابن عباس: «وَأَنَا أَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ» أنه لا يراك أحد، وكذا قال أبو العالية: قد كان قبله مؤمنون، ولكن يقول: أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة. وهذا قول حسن له اتجاه، وقد ذكر محمد بن جرير فى تفسيره هنا أثراً طويلاً فيه غرائب وعجائب، عن محمد بن إسحاق بن يسار وكأنه تلقاه من الإسرائيليات والله أعلم.

وقوله: «وَخَرَّ مُوسَى صَوْعًا» فيه أبو سعيد وأبو هريرة، عن النبي ﷺ، فأما حديث أبي سعيد فأسنده البخارى<sup>(١)</sup> فى صحيحه ها هنا، فقال: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان عن عمرو بن يحيى المازنى، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدرى، رضى الله عنه، قال: جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لطم وجهه، وقال: يا محمد، إن رجلاً من أصحابك من الأنصار لطم وجهى. قال: «ادعوه». فدعوه، قال: «لم لطمت وجهه؟» قال: يا رسول الله، إنى مررت باليهودى فسمعتهم يقول: والذى اصطفى موسى على البشر. قال: وعلى محمد. وأخذتنى غضبة، فلطمته، فقال: «لا تخيرونى من بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور؟». وقد رواه البخارى فى أماكن كثيرة من

(١) أخرجه البخارى (٤٦٣٨)، ومسلم (٢٣٧٤)، وأبو داود (٤٦٦٨).

صحيحه، ومسلم في أحاديث الأنبياء وأبو داود في كتاب السنة من سننه من طرق عن عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبي الحسن المازني الأنصاري المدني عن أبيه عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري به.

وأما حديث أبي هريرة<sup>(١)</sup> فقال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا أبو كامل حدثنا إبراهيم بن سعد حدثنا ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: استب رجلان: رجل من المسلمين، ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين. وقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين فغضب المسلم على اليهودي فلفطمه، فأتى اليهودي رسول الله ﷺ، فسأله فأخبره، فدعاه رسول الله ﷺ، فاعترف بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخيروني على موسى؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى ممسك بجانب العرش، فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي، أم كان ممن استثنى الله عز وجل؟». أخرجه في الصحيحين، من حديث الزهري، به.

وقد روى الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا، رحمه الله: أن الذي لطم اليهودي في هذه القضية هو أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، ولكن تقدم في الصحيحين أنه رجل من الأنصار، وهذا هو أصح وأصح، والله أعلم. والكلام في قوله، عليه السلام: «لا تخيروني على موسى»، كالكلام على قوله: «لا تفضلوني على الأنبياء ولا على يونس بن متى»، قيل: من باب التواضع. وقيل: قبل أن يعلم بذلك. وقيل: نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضب والتعصب. وقيل: على وجه القول بمجرد الرأي والتشهي، والله أعلم.

وقوله: «فإن الناس يصعقون يوم القيامة»، الظاهر أن هذا الصعق يكون في عرصات القيامة، يحصل أمر يصعقون منه، والله أعلم به.

وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، وتجلي للخلائق الملك الديان، كما صعق موسى من تجلى الرب، تبارك وتعالى، ولهذا قال عليه السلام: «فلا أدري أفاق قبلي أم جوزى بصعقة الطور؟» وقد روى القاضي عياض في أوائل كتابه «الشفاء» بسنده عن محمد بن محمد بن مرزوق<sup>(٢)</sup>: حدثنا قتادة حدثنا الحسن عن قتادة عن يحيى بن وثاب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لما تجلى الله لموسى، عليه السلام، كان يبصر النملة على الصفا في الليلة الظلماء، مسيرة عشرة فراسخ»، ثم قال: ولا يبعد على هذا أن يختص نبينا بما ذكرناه من هذا الباب بعد الإسراء والحظوة بما رأى من آيات ربه الكبرى، انتهى ما قاله، وكأنه صحح هذا الحديث، وفي صحته نظر، ولا تخلو رجال إسناده من مجاهيل لا يعرفون، ومثل هذا إنما يقبل من رواية العدل الضابط عن مثله، حتى ينتهي إلى منتهاه، والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣)، وأبو داود (٤٦٧١)، وأحمد (٧٥٣٢)، عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه الطبراني في الصغير (٦٥/١)، حديث (٧٧)، وأورده الهيثمي في المجمع (٢٠٣/٨)، وقال: رواه الطبراني في الصغير وفيه الحسين بن أبي جعفر الحفري وهو متروك.

﴿قَالَ يَمْؤُوسَ إِنِّي اصْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتَكَ وَكُن مِمَّنْ الشَّاكِرِينَ ﴿٤٣﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿٤٤﴾﴾

يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على أهل زمانه برسالاته تعالى، وبكلامه ولا شك أن محمداً ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين؛ ولهذا اختصه الله تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تستمر شريعته إلى قيام الساعة، وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم، وبعده في الشرف والفضل إبراهيم الخليل، عليه السلام، ثم موسى بن عمران كليم الرحمن، عليه السلام؛ ولهذا قال الله تعالى له: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتَكَ﴾ أي من الكلام والمناجاة ﴿وَكُن مِمَّنْ الشَّاكِرِينَ﴾ أي على ذلك، ولا تطلب ما لا طاقة لك به.

ثم أخبر تعالى أنه كتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء، قيل: كانت الألواح من جوهر، وإن الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكاماً مفصلة مبينة للحلال والحرام، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ [القصص: ٤٣].

وقيل: الألواح أعطاها موسى قبل التوراة، والله أعلم. وعلى كل تقدير فكانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومنع منها، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي بعزم على الطاعة ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ قال سفيان بن عيينة: حدثنا أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس قال: أمر موسى - عليه السلام - أن يأخذ بأشد ما أمر قومه. وقوله: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي سترون عاقبة من خالف أمري، وخرج عن طاعتي، كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب؟.

قال ابن جرير: وإنما قال: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾، كما يقول الغائل لمن يخاطبه: سأريك غداً إلى ما يصير إليه حال من خالف أمري، على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره. ثم نقل معنى ذلك عن مجاهد، والحسن البصري.

وقيل: معناه ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي من أهل الشام، وأعطيك إياها. وقيل: منازل قوم فرعون، والأول أولى، والله أعلم؛ لأن هذا بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر، وهو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التيه، والله أعلم.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَيِّئًا لِرُشْدٍ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَيِّئًا لِنَفْسٍ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي سامع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي، ويتكبرون على الناس بغير حق،

أى كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل، كما قال تعالى: ﴿وَقَلْبٌ أَفْتَدْتَهُمْ وَأَبْصَرْتَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرْوٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وقال بعض السلف: لا ينال العلم حياً ولا مستكبر.

وقال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة، بقى فى ذلك الجهل أبداً. وقال سفيان بن عيينة فى قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قال: أنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتى. قال ابن جرير: وهذا يدل على أن هذا الخطاب لهذه الأمة. قلت: ليس هذا بلازم؛ لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد فى حق كل أمة، ولا فرق بين أحد وأحد فى هذا، والله أعلم. وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُفْلًا أَبَوْا لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُفْلًا أَبَوْا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أى وإن ظهر لهم سبيل الرشd، أى طريق النجاة لا يسلكوها، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً، ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أى كذبت بها قلوبهم، ﴿وَكَاثُرًا عَنَّا غَافِلِينَ﴾ أى لا يعلمون شيئاً مما فيها. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أى من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات، حبط عمله. وقوله: ﴿هَلْ يُجِزُّونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾ أى إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التى أسلفوها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وكما تدبى ندان.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَّهُ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ لَا يَكْفُرُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾ وَلَكِنْ سَقَطَ فِي آيَاتِهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَيْنَ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبَّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بنى إسرائيل فى عبادتهم العجل، الذى اتخذه لهم السامرى من حلى القبط، الذى كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلاً، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التى أخذها من أثر فرس جبريل، عليه السلام، فصار عجلاً جسداً له خوار، والخوار: صوت البقر. وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى، فأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور، حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥]. وقد اختلف المفسرون فى هذا العجل: هل صار لحماً ودماً له خوار؟ أو استمر على كونه من ذهب، إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقرة؟ على قولين، والله أعلم. ويقال: إنهم لما صوت لهم العجل رقصوا حوله وافتتنوا به ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِنَّهٗ مُوسَى قَتَلَهُ﴾ [طه: ٨٨]، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا بَرَجًا لِيبَسُّهُمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ سَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩]. وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُمْ لَا يَكْفُرُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾، ينكر تعالى عليهم فى ضلالهم بالعجل، وذوولهم عن خالق السموات والأرض ورب كل شىء ومليكه، أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خوار لا يكلمهم، ولا يرشدهم إلى خير، ولكن غطى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلال، كما تقدم من رواية الإمام أحمد وأبى داود (١)، عن

(١) أخرجه أبو داود (٥١٣٠)، وأحمد (٢١١٨٦) عن أبى الدرداء.

أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «حبك الشيء يعمى ويصم» .

وقوله: ﴿وَلَا سُقَطَ فِي آيَاتِهِمْ﴾ أى ندموا على ما فعلوا ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَتَّعِزَّنَا﴾ ، وقرأ بعضهم: «لئن لم ترحمنا» بالياء المشناة من فوق، ﴿رَبُّنَا﴾ منادى ﴿وَيَتَّعِزَّنَا﴾ لَنَا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أى من الهالكين وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل .

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَيْفًا قَالَ لِنِسَاءِ خَلْفَتِي مِنْ بَيْتِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَاللَّيْلِ الْأَلْوَا حَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾

يخبر تعالى أن موسى عليه السلام رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف . قال أبو الدرداء: والأسف: أشد الغضب . ﴿قَالَ لِنِسَاءِ خَلْفَتِي مِنْ بَيْتِي﴾ يقول: بشس ما صنعتم فى عبادة العجل بعد أن ذهبت وتركتكم . وقوله: ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ يقول: استعجلتم مجيئى إليكم، وهو مقدر من الله تعالى .

وقوله: ﴿وَاللَّيْلِ الْأَلْوَا حَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ قيل: كانت الألواح من زمرد . وقيل: من ياقوت . وقيل: من برد . وفى هذا دلالة على ما جاء فى الحديث: «ليس الخير كالمعينة» . ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضباً على قومه، وهذا قول جمهور العلماء سلفاً وخلفاً . وروى ابن جرير عن قتادة فى هذا قولاً غريباً، لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة، وقد رده ابن عطية وغير واحد من العلماء، وهو جدير بالرد، وكانه تلقاه قتادة عن بعض أهل الكتاب وفيهم كذابون ووضاعون وأفاكون وزنادقة .

وقوله: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ خوفاً أن يكون قد قصر فى نهيهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَهُودُ مَا مَتَّكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنْ خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٢-٩٤] وقال ههنا: ﴿ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ﴾ أى لا تسوقنى سياهم، وتجعلنى معهم، وإنما قال: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾؛ ليكون أرق وأنجع عنده، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه، فلما تحقق موسى، عليه السلام، براءة ساحة هارون عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَاقُورُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠] فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وقال ابن أبى حاتم<sup>(١)</sup>: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله موسى، ليس المعادين كالمخبر؛ أخبره ربه، عز وجل أن قومه فتنوا بعده، فلم يلق

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه (٩٧/١٤)، (٦٢١٤) عن ابن عباس، والحاكم فى المستدرک (٤١٢/٢) حديث (٣٤٣٥) .

الألواح فلما رآهم وعانينهم ألقي الألواح» .

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَخْخَدُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٧﴾

أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل ، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة ، حتى قتل بعضهم بعضاً ، كما تقدم في سورة البقرة ﴿فَتَوَبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاغْلَبُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤] .

وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلة وصغاراً في الحياة الدنيا ، وقوله : ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ نائلة لكل من افترى بدعة ، فإن ذل البدعة ومخالفة الرشد متصلة من قلبه على كتفيه ، كما قال الحسن البصري : إن ذل البدعة على أكتافهم ، وإن هملجت بهم البغلات ، وطقطقت بهم البراذين . وهكذا روى أيوب السختياني ، عن أبي قلابة الجرمي ، أنه قرأ هذه الآية : ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ فقال : هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة . وقال سفيان بن عيينة : كل صاحب بدعة ذليل . ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان ، حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق ؛ ولهذا عقب هذه القصة بقوله : ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ﴾ أي يا محمد ، يا رسول التوبة ونبي الرحمة ، ﴿مِن بَعْدِهَا﴾ أي : من بعد تلك الفعلة ﴿لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا أبان حدثنا قتادة عن عذرة عن الحسن العرنى عن علقمة عن عبد الله بن مسعود أنه سئل عن ذلك - يعني عن الرجل يزني بالمرأة ، ثم يتزوجها - فتلا هذه الآية : ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ، فتلاها عبد الله عشر مرات ، فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها .

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْفَضْبُ أَخَذَ الْأَلْوَابُ فِي سُخْرِيهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُم لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ﴿١٤٨﴾

يقول تعالى : ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ أي سكن ﴿عَن مُّوسَى الْفَضْبُ﴾ أي غضبه على قومه ﴿أَخَذَ الْأَلْوَابُ﴾ أي : التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل ، غيرة لله وغضبا له ﴿وَفِي سُخْرِيهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُم لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ . يقول كثير من المفسرين : إنها لما ألقاها تكسرت ، ثم جمعها بعد ذلك ؛ ولهذا قال بعض السلف : فوجد فيها هدى ورحمة . وأما التفصيل فذهب ، وزعموا أن رضاها لم يزل موجوداً في خزائن الملوك لبني إسرائيل إلى الدولة الإسلامية ، والله أعلم بصحة هذا . وأما الدليل الواضح على أنها تكسرت حين ألقاها ، وهي من جوهر الجنة ، فقد أخبر تعالى أنه لما أخذها بعد ما ألقاها وجد فيها ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُم لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ضمن الرهبة معنى الخضوع ، ولهذا عداها باللام . وقال قتادة : في قوله تعالى : ﴿أَخَذَ الْأَلْوَابُ﴾ قال : رب إني أجد في الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فاجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب ، إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون - السابقون أي آخرون في الخلق سابقون في دخول الجنة ، رب

اجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب ، إنى أجد فى الألواح أمة أناجيلهم فى صدورهم يقرأونها وكان من قبلهم يقرأون - كتابهم - نظراً ، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً ولم يعرفوه ، وإن الله أعطاهم من الحفظ شيئاً ، لم يعطه أحداً من الأمم . قال : رب ، اجعلهم أمتي : قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول ، وبالكتاب الآخر ، ويقاتلون فصول الضلالة ، حتى يقاتلون الأعور الكذاب ، فاجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب ، إنى أجد فى الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها فى بطونهم ، ويؤجرون عليها - وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة قبلت منه ، بعث الله عليها ناراً فأكلتها ، وإن ردت عليه تركت ، فتأكلها السباع والطير ، وإن الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم - قال : رب فاجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها ، كتبت له حسنة ، فإن عملها ، كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة ، رب ، اجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب ، إنى أجد فى الألواح أمة هم المشفوعون والمشفوع لهم فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد . قال قتادة : فذكر لنا أن نبي الله موسى عليه السلام نبذ الألواح - وقال : اللهم اجعلنى من أمة أحمد .

﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّيَلْبِقَيْنَا فَلَئِمَّا أَحَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَرَأَيْتُ أَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِئْتَكُ تَفْضُلُ بِهَا مِنْ نَشَاءٍ وَتَهْدِي مِنْ نَشَاءٍ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿٥٥﴾ \* وَكُنْتُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَلْتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾﴾

ثلاثة  
أربع  
الحزب  
١٧

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية : كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً ، فاختار سبعين رجلاً فبرز بهم ليدعوا ربهم ، وكان فيما دعوا الله أن قالوا : اللهم أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا ، فكره الله ذلك من دعائهم ، فأخذتهم الرجفة : ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَرَأَيْتُ﴾ الآية . وقال السدى : إن الله أمر موسى أن يأتيه فى ثلاثين من بنى إسرائيل ، يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موعداً ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ على عينه ثم ذهب بهم ليعتذروا ، فلما أتوا ذلك المكان قالوا : ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ [البقرة : ٥٥] ، يا موسى ﴿حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة : ٥٥] ، فإنك قد كلمته فأرناه ﴿فَأَخَذْنَاكُمْ فَلْيَقِمْ﴾ [البقرة : ٥٥] فماتوا فقام موسى يبكى ويدعوا الله ويقول : رب ماذا أقول لبنى إسرائيل إذا لقيتهم وقد أهلكت خيارهم ؟ ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَرَأَيْتُ﴾

وقال محمد بن إسحاق : اختار موسى من بنى إسرائيل سبعين رجلاً ، الخير فالخير ، وقال : انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم ، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا وتطهروا ، وطهروا ثيابكم ، فخرج بهم إلى طور سيناء ، لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم فقال له السبعون - فيما ذكر لى حين صنعوا ما أمرهم به ، وخرجوا معه للقاء ربه - لموسى : اطلب لنا نسمع كلام ربنا . فقال : أفعل . فلما دنا موسى من الجبل ، وقع عليه عمود الغمام ، حتى تغشى الجبل كله



قال: إنما سميت اليهود لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاكَ إِلَيْنَا﴾. جابر - هو ابن يزيد الجعفي؛ ضعيف.  
يقول تعالى مجيباً لموسى في قوله: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنِ شَاءَ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ قال:  
﴿عَذَابِي أَلِيمٌ بِهِ مَنِ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: أفعل ما أشاء، وأحكم ما أريد، ولي  
الحكمة والعدل في كل ذلك، سبحانه لا إله إلا هو. وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾: آية  
عظيمة الشمول والعموم، كقوله تعالى إخباراً عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ  
كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

وقال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبي، حدثنا الجريري عن أبي عبد الله الجشمي،  
حدثنا جندب - هو ابن عبد الله البجلي، رضى الله عنه - قال: جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عقلاها ثم  
صلى خلف رسول الله ﷺ، فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقلاها، ثم ركبها، ثم  
نادى: اللهم، ارحمني ومحمداً، ولا تشرك في رحمتنا أحداً. فقال رسول الله ﷺ: «أتقولون: هذا  
أضل أم بعيره؟ ألم تسمعوا ما قال؟» قالوا: بلى. قال: «لقد حظرت رحمة واسعة؛ إن الله، عز وجل،  
خلق مائة رحمة، فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق؛ جنها وإنسها وبهائمها، وأخر عنده تسعاً وتسعين  
رحمة، أتقولون: هو أضل أم بعيره؟» رواه أحمد وأبو داود، عن علي بن نصر، عن عبد الصمد بن  
عبد الوارث به.

وقال الإمام أحمد<sup>(٢)</sup> أيضاً: حدثنا يحيى بن سعيد عن سليمان، عن أبي عثمان، عن سلمان عن  
النبي ﷺ قال: «إن لله، عز وجل مائة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق، وبها تعطف الوحوش  
على أولادها، وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة». تفرد بإخراجه مسلم، فرواه من حديث سليمان -  
هو ابن طرخان - وداود بن أبي هند، كلاهما، عن أبي عثمان - واسمه: عبد الرحمن بن ميل - عن  
سلمان هو الفارسي، عن النبي ﷺ، به. وقال الإمام أحمد<sup>(٣)</sup>: حدثنا عفان، حدثنا حماد عن  
عاصم بن بهدلة عن أبي صالح عن أبي هريرة؛ عن النبي ﷺ قال: «إن لله مائة رحمة، عنده تسعة  
وتسعون، وجعل عندكم واحدة تتراحمون بها بين الجن والإنس وبين الخلق، فإذا كان يوم القيامة  
ضمها إليه». تفرد به أحمد من هذا الوجه. وقال أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد، حدثنا  
الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لله مائة رحمة، فقسم منها جزءاً  
واحداً بين الخلق به يتراحم الناس والوحش والطيور». ورواه ابن ماجه من حديث أبي معاوية عن  
الأعمش به، وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني<sup>(٤)</sup>: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا  
أحمد بن يونس، حدثنا سعد أبو غيلان الشيباني عن حماد بن أبي سليمان عن إبراهيم عن صلة بن زفر  
عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، ليدخلن الجنة  
الفاجر في دينه، الأحقق في معيشته، والذى نفسى بيده، ليدخلن الجنة الذى قد محشته النار بذببه،

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٨٥)، وأحمد (٣١٢/٤).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٧٥٣)، وأحمد حديث (٢٣٢٠٨)، وأحمد (١١١٣٧) عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه أحمد (١١١٣٦)، وابن ماجه حديث (٤٢٩٤).

(٤) رواه الطبراني في الكبير (١٦٨/٣) حديث (٣٠٢٢) عن حذيفة.

والذى نفسى بيده ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة يتناول لها إبليس رجاء أن تصيبه. هذا حديث غريب جداً، وسعد هذا لا أعرفه.

وقوله: ﴿فَسَأَكْتِبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآية، يعنى: فسأوجب حصول رحمتى منتهى منى وإحساناً إليهم، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ [الأنعام: ٥٤]. وقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أى سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات، وهم أمة محمد ﷺ ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، أى: الشرك والعظائم من الذنوب. قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قيل: زكاة النفوس. وقيل: الأموال. ويحتمل أن تكون عامة لهما؛ فإن الآية مكية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: يصدقون.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾: وهذه صفة محمد ﷺ فى كتب الأنبياء بشرى أمهم ببعثه، وأمرهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة فى كتبهم يعرفها علماءهم وأخبارهم، كما روى الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل عن الجريرى عن أبى صخر العقيلي حدثنى رجل من الأعراب قال: جلبت حلوبة إلى المدينة فى حياة رسول الله ﷺ فلما فرغت من بيعى قلت: لألقين هذا الرجل فلا سمعن منه. قال: فتلقتانى بين أبى بكر وعمر يمشون فبتعتهم فى أقبائهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشراً التوراة يقرؤها يعزى بها نفسه عن ابن له فى الموت كأجمل الفتيان وأجمله فقال رسول الله ﷺ: «أشذك بالذى أنزل التوراة هل تجد فى كتابك هذا صفتى ومخرجى؟» فقال برأسه هكذا أى لا فقال ابنه: إى والذى أنزل التوراة إنا لنجد فى كتابنا صفتك ومخرجك وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله فقال: «أقيموا اليهودى عن أخيكم»، ثم ولى كفته والصلاة عليه. هذا حديث جيد قوى له شاهد فى الصحيح، عن أنس.

وقال الحاكم صاحب المستدرک: أخبرنا محمد - عبد الله بن إسحاق البغوى، حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدى، حدثنا عبد العزيز بن مسلم بن إدريس، حدثنا عبد الله بن إدريس عن شرحبيل بن مسلم عن أبى أمامة الباهلى عن هشام بن العاص الأموى قال: بعثت أنا ورجل آخر إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام فخرجنا حتى قدمنا الغوطة - يعنى غوطة دمشق - فنزلنا على جبله بن الأيهم الغسانى، فدخلنا عليه، فإذا هو على سرير له، فأرسل إلينا برسوله نكلمه، فقلنا: والله لا نكلم رسولاً وإنما بعثنا إلى الملك، فإن أذن لنا كلمناه وإلا لم نكلم الرسول فرجع إليه الرسول فأخبره بذلك قلله: فأذن لنا فقال: تكلموا فكلمه هشام بن العاص ودعاه إلى الإسلام فإذا عليه ثياب سود فقال له هشام: وما هذه التى عليك؟ فقال: لبستها وحلفت أن لا أنزعها حتى أخرجكم من الشام قلنا: ومجلسك هذا والله لتأخذنه منك ولناخذن ملك الملك الأعظم إن شاء الله، أخبرنا بذلك نبينا محمد ﷺ. قال: لستم بهم، بل هم قوم يصومون بالنهار، ويقومون بالليل فكيف صومكم؟ فأخبرناه، فملىء وجهه سواداً

فقال: قوموا وبعث معنا رسولا إلى الملك فخرجنا حتى إذا كنا قريبا من المدينة قال لنا الذي معنا: إن دوابكم هذه لا تدخل مدينة الملك فإن شئتم حملناكم على براذين ويغال، قلنا: والله لا ندخل إلا عليها فأرسلوا إلى الملك أنهم يأبون ذلك فأمرهم أن ندخل على رواحلنا، فدخلنا عليها متقلدين سيوفنا حتى انتهينا إلى غرفة له فأنخنا في أصلها وهو ينظر إلينا، فقلنا: لا إله إلا الله والله أكبر فإله يعلم لقد تنفضت الغرفة حتى صارت كأنها عذق تصفقه الرياح، قال: فأرسل إلينا ليس لكم أن تجهروا علينا بدينكم، وأرسل إلينا: أن ادخلوا، فدخلنا عليه وهو على فراش له، وعنده بطارقة من الروم، وكل شيء في مجلسه أحمر، وما حوله حمرة وعليه ثياب من الحمرة، فدوننا منه فضحك فقال: ما عليكم لو حييتموني بتحييتكم فيما بينكم؟ وإذا عنده رجل فصيح بالعربية كثير الكلام فقلنا: إن تحيتنا فيما بيننا لا تحل لك وتحيتك التي تحيا بها لا يحل لنا أن نحيك بها قال: كيف تحيتكم فيما بينكم؟ قلنا: السلام عليكم. قال: فكيف تحيون ملككم؟ قلنا: بها قال: فكيف يرد عليكم؟ قلنا: بها

قال: فما أعظم كلامكم؟ قلنا: لا إله إلا الله، والله أكبر فلما تكلمنا بها والله يعلم - لقد تنفضت الغرفة حتى رفع رأسه إليها، قال: فهذه الكلمة التي قلموها حيث تنفضت الغرفة، أكلما قلموها في بيوتكم انتفضت عليكم غرفكم؟ قلنا: لا، ما رأيناها فعلت هذا قط إلا عندك. قال: لوددت أنكم كلما قلمتم انتفض كل شيء عليكم، وإنى قد خرجت من نصف ملكي. قلنا: لم؟ قال: لأنه كان أيسر لشأنها، وأجدر أن لا تكون من أمر النبوة، وأنها تكون من حيل الناس. ثم سألنا عما أراد فأخبرناه. ثم قال: كيف صلاتكم وصومكم؟ فأخبرناه، فقال: قوموا، فأمر لنا بمنزل حسن ونزل كثير، فأقمنا ثلاثاً، فأرسل إلينا ليلاً فدخلنا عليه، فاستعاد قولنا فأعدناه. ثم دعا بشيء كهية الربة العظيمة مذهبة، فيها بيوت صغار عليها أبواب، ففتح بيتاً وقفلأ، فاستخرج حريرة سوداء، فنشرها، فإذا فيها صورة جهراء، وإذا فيها رجل ضخم العينين، عظيم الألتين لم أر مثل طول عنقه، وإذا ليست له لحية وإذا له ضميرتان أحسن ما خلق الله فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا قال: هذا آدم، عليه السلام، وإذا هو أكثر الناس شعراً، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداء وإذا فيها صورة بيضاء وإذا له شعر كشعر القطط أحمر العينين ضخم الهامة حسن اللحية فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا نوح عليه السلام، ثم فتح باباً آخر فاستخرج حريرة سوداء وإذا فيها رجل شديد البياض حسن العينين صلت الجبين طويل الخد أبيض اللحية كأنه يبتسم فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا قال: هذا إبراهيم عليه السلام، ثم فتح باباً آخر فإذا فيه صورة بيضاء، وإذا - والله - رسول الله ﷺ فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: نعم، هذا محمد رسول الله ﷺ قال: وبكينا. قال: والله يعلم أنه قام قائماً ثم جلس، وقال: والله إنه لهو قلنا: نعم إنه لهو كأنك تنظر إليه فأمسك ساعة ينظر إليها ثم قال: أما إنه كان آخر البيوت ولكني جعلته لكم لأنظر ما عندكم، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فإذا فيها صورة آدماء سحماء وإذا رجل جعد قطط غائر العينين، حديد النظر عابس متراكب الأسنان متقلص الشفة كأنه غضبان فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا موسى، عليه السلام. وإلى جنبه صورة تشبهه إلا أنه مدهان الرأس عريض الجبين في عينيه قبل فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا هارون بن عمران، عليه السلام. ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فإذا فيها صورة رجل آدم سبط ربة

كانه غضبان فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا لوط، عليه السلام. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة بيضاء فإذا فيها صورة رجل أبيض مشرب حمرة أفتى خفيف العارضين حسن الوجه فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إسحاق، عليه السلام، ثم فتح باباً آخر فاستخرج حريرة بيضاء فإذا فيها صورة تشبه إسحاق إلا أنه على شفته خال فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا يعقوب عليه السلام، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فيها صورة رجل أبيض حسن الوجه، أفتى الأنف حسن القامة يعلو وجهه نور يعرف في وجهه الخشوع يضرب إلى الحمرة قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إسماعيل جد نبيكم، ﷺ.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج حريرة بيضاء فإذا فيها صورة كصورة آدم كان وجهه الشمس فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا يوسف عليه السلام، ثم فتح باباً آخر فاستخرج حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة رجل أحمر حمش الساقين أخفش العينين، ضخم البطن ربعة متقلد سيقاً فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا داود، عليه السلام. ثم فتح باباً آخر فاستخرج حريرة بيضاء، فيها صورة رجل ضخم الألتين، طويل الرجلين راكب فرساً فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا سليمان بن داود، عليهما السلام. ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فيها صورة بيضاء وإذا شاب شديد سواد اللحية كثير الشعر حسن العينين حسن الوجه فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا عيسى ابن مريم، عليه السلام. قلنا: من أين لك هذه الصور؟ لأننا نعلم أنها على ما صورت عليه الأنبياء، عليهم السلام، لأننا رأينا صورة نبينا عليه السلام مثله.

فقال: إن آدم، عليه السلام، سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده فأنزل عليه صورهم، فكانت في خزانة آدم عليه السلام عند مغرب الشمس فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس فدفعها إلى دانيال، ثم قال: أما والله إن نفسى طابت بالخروج من ملكى، وإنى كنت عبداً لأشركم ملكه، حتى أموت، ثم أجازنا فأحسن جاتزتنا وسرحنا فلما أتينا أبا بكر الصديق رضى الله عنه فحدثناه بما أرانا وبما قال لنا وما أجازنا، قال: فبكى أبو بكر، وقال: مسكين لو أراد الله به خيراً لفعل ثم قال: أخبرنا رسول الله ﷺ أنهم واليهود يجدون نعت محمد ﷺ عندهم. وهكذا أورده الحافظ الكبير البيهقي، رحمه الله، فى كتاب «دلائل النبوة»، عن الحاكم إجازة، فذكره، وإسناده لا بأس به.

وقال ابن جرير<sup>(١)</sup>: حدثنا المثنى حدثنا عثمان بن عمر حدثنا فليح عن هلال بن على عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو فقلت: أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة قال: أجل والله، إنه لموصوف فى التوراة كصفته فى القرآن: ﴿يَأْتِيهَا النَّوِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وحرزاً للأميين أنت عبدى ورسولى اسمك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولو: لا إله إلا الله ويفتح به قلوباً غلفاً وآذاناً صمّاً وأعيناً عمياً، قال عطاء: ثم لقيت كعباً فسألته عن ذلك فما اختلف حرفاً إلا أن كعباً قال بلغته: قال قلوباً غلوفياً وآذاناً صمومياً وأعيناً عمومياً، وقد رواه البخارى فى صحيحه<sup>(٢)</sup> عن محمد بن سنان عن فليح عن هلال بن على فذكر بإسناده

(١) رواه الطبري (٨٣/٩).

(٢) أخرجه البخاري فى صحيحه (٢١٢٥)، وأحمد حديث (٦٥٨٥).

نحوه، وزاد بعد قوله: «ليس بفظ ولا غليظ»: «ولا صخاب فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح». وذكر حديث عبد الله بن عمرو، ثم قال: ويقع فى كلام كثير من السلف إطلاق «التوراة» على كتب أهل الكتاب. وقد ورد فى بعض الأحاديث ما يشبه هذا، والله أعلم.

وقال المحافظ أبو القاسم الطبراني<sup>(١)</sup>: حدثنا موسى بن هارون، حدثنا محمد بن إدريس بن وراق بن الحميدى، حدثنا محمد بن عمر بن إبراهيم - من ولد جبير بن مطعم - قال: حدثنى أم عثمان بنت سعيد - وهى جدتى - عن أبيها سعيد بن محمد بن جبير عن أبيه محمد بن جبير عن أبيه جبير بن مطعم قال: خرجت تاجرًا إلى الشام فلما كنت بأدنى الشام لقينى رجل من أهل الكتاب فقال: هل عندكم رجل نبيًا؟ قلت: نعم. قال: هل تعرف صورته إذا رأيتها؟ قلت: نعم. فأدخلنى بيتًا فيه صور، فلم أر صورة النبى ﷺ، فبينما أنا كذلك إذ دخل رجل منهم علينا فقال: فيم أنتم؟ فأخبرناه، فذهب بنا إلى منزله، فساعة ما دخلت نظرت إلى صورة النبى ﷺ، وإذا رجل أخذ بعقب النبى ﷺ قلت: من هذا الرجل القابض على عقبه؟ قال: إنه لم يكن نبى إلا كان بعده نبى إلا هذا النبى، فإنه لا نبى بعده، وهذا الخليفة بعده وإذا صفة أبى بكر رضى الله عنه. وقال أبو داود: حدثنا عمر بن حفص أبو عمرو الضرير حدثنا حماد بن سلمة أن سعيد بن إيّاس الجريرى أخبرهم عن عبد الله بن شقيق العقيلى عن الأقرع مؤذن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال<sup>(٢)</sup>: بعثنى عمر إلى الأسقف فدعوته فقال له عمر: هل تجدنى فى الكتاب؟ قال: نعم. قال: كيف تجدنى؟ قال: أجلك قرئًا. فرفع عمر المرة وقال: قرن مه؟ قال: قرن حديد، أمير شديد، قال: فكيف تجد الذى بعدى؟ قال: أجد خليفة صالحًا غير أنه يؤثر قرابته، قال عمر: يرحم الله عثمان ثلاثًا قال: كيف تجد الذى بعده؟ قال: أجد صدأ حديد، قال: فوضع عمر يده على رأسه وقال: يا دفراه يا دفراه قال: يا أمير المؤمنين إنه خليفة صالح ولكنه يستخلف حين يستخلف والسيف مسلول والدم مهراق.

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، هذه صفة الرسول ﷺ فى الكتب المتقدمة، وهكذا كانت حاله، عليه الصلاة والسلام، لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر كما قال عبد الله بن مسعود: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤] فأرعهما سمعك، فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه. ومن أهم ذلك وأعظمه، ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهى عن عبادة من سواه كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلٰتِ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال الإمام أحمد<sup>(٣)</sup>: حدثنا أبو عامر - هو العقدي عبد الملك بن عمرو - حدثنا سليمان هو ابن بلال - عن ربيعة بن أبى عبد الرحمن عن عبد الملك بن سعيد عن أبى حميد وأبى أسيد رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم

(١) رواه الطبراني فى الكبير (١٢٥/٢) حديث (١٥٣٧)، وقال الهيثمى فى المجمع (٢٣٣/٨): رواه الطبراني فى الكبير والأوسط وفيه من لم يعرفهم.

(٢) أخرجه أبو داود حديث (٤٦٥٦).

(٣) أخرجه أحمد (٤٩٧/٣)، وقال الهيثمى فى المجمع: رواه أحمد والبخارى ورجالهم رجال الصحيح.

وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدمكم منه. هذا إسناد جيد ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البخترى عن على بن رضى الله عنه قال: إذا سمعتم عن رسول الله ﷺ حديثاً فظنوا به الذى هو أهنى، والذى هو أنقى. ثم رواه عن يحيى عن ابن سعيد عن مسعر عن عمرو بن مرة عن أبي البخترى، عن أبي عبد الرحمن عن على بن رضى الله عنه قال: إذا حدثتم عن رسول الله ﷺ حديثاً فظنوا به الذى هو أهده وأهناه وأتقاه.

وقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ أى يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر، والسوائب، والوصائل، والحام، ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾.

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: كلحم الخنزير والربا، وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التى حرمها الله تعالى. قال بعض العلماء: كل ما أحل الله تعالى من المآكل فهو طيب نافع فى البدن والدين، وكل ما حرمه فهو خبيث ضار فى البدن والدين.

وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتقيح العقليين، وأجيب عن ذلك بما لا يتسع هذا الموضوع له.

وكذا احتج بها من ذهب من العلماء، إلا أن المرجع فى حل المآكل التى لم ينص على تحليلها ولا تحريمها، إلى ما استطابته العرب فى حال رفاهيتها، وكذا فى جانب التحريم إلى ما استخبثته، وفيه كلام طويل أيضاً.

وقوله: ﴿وَيَصْنَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أى: أنه جاء بالتييسير والسماحة كما ورد<sup>(١)</sup> الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة». وقال ﷺ لأميريه معاذ وأبى موسى الأشعري، لما بعثهما إلى اليمن<sup>(٢)</sup>: «بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلفا».

وقال صاحبه أبو برزة الأسلمى: إني صحبت رسول الله ﷺ وشهدت تيسيره. وقد كانت الأمم التى قبلنا فى شرائعهم ضيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها وسهلها لهم؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ<sup>(٣)</sup>: «إن الله تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها، ما لم تفل أو تعمل». وقال<sup>(٤)</sup>: «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»؛ ولهذا قال: أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِدْرَآءًا وَلَا نَفْسًا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وثبت فى صحيح مسلم<sup>(٥)</sup> أن الله تعالى قال: بعد

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البزار فى مسنده حديث (٣١١٩).

(٣) أخرجه مسلم (١٢٧)، والترمذي حديث (١١٨٣).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أخرجه مسلم (١٢٦)، والترمذي (٢٩٩٢).

كل سؤال من هذه: «قد فعلت، قد فعلت» .

وقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ أى عظموه ووقروه .

وقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ أى القرآن والوحى الذى جاء به مبلغًا إلى الناس، ﴿أُولَئِكَ

هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى فى الدنيا والآخرة .

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى لنبىه ورسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿يَتَّيِبُهَا النَّاسُ﴾، وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربى والعجمى ﴿إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أى جميعكم وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبیین، وأنه مبعوث إلى الناس كافة، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْجِدُهُ﴾ [هود: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْأَلْتُمْ إِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ افْتَكِرُوا ذَاتَ نَفْسٍ فَكَيْفَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ﴾ [آل عمران: ٢٠] والآيات فى هذا كثيرة، كما أن الأحاديث فى هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى الناس كلهم . قال البخارى <sup>(١)</sup>، رحمه الله فى تفسير هذه الآية: حدثنا عبد الله حدثنا سليمان بن عبد الرحمن وموسى بن هارون قالوا: حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا عبد الله بن العلاء بن زيد حدثنى بشر بن عبيد الله حدثنى أبو إدريس الخولانى قال: سمعت أبا الدرداء، رضى الله عنه يقول: كانت بين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما محاوراة فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مغضبًا، فأتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابه فى وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ - فقال أبو الدرداء: ونحن عنده - فقال رسول الله ﷺ: «أما صاحبكم هذا فقد غامر» - أى: غاضب وحاقد - قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبى ﷺ، وقص على رسول الله ﷺ الخبر - قال أبو الدرداء: فغضب رسول الله ﷺ وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لانا كنت أظلم فقال رسول الله ﷺ: «هل أنتم تاركو لى صاحبى؟ إنى قلت: يا أيها الناس، إنى رسول الله إليكم جميعًا، فقلتم: كذبت . وقال أبو بكر: صدقت» . انفرد به البخارى .

وقال أيضًا <sup>(٢)</sup>: حدثنا عبد الصمد حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا يزيد بن أبى زياد عن مقسم عن ابن عباس مرفوعًا أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمسًا لم يعطهن نبى قبلى - ولا أقوله فخرًا: - بعثت إلى الناس كافة: الأحمر والأسود، ونصرت بالرعب مسيرة شهر وأحللت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمى يوم القيامة فهى لمن لا يشرك بالله شيئًا» . إسناده جيد ولم يخرجوه .

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا بكر بن مضر عن ابن الهاد عن عمرو بن

(٢) أخرجه أحمد، حديث (٢٧٣٧).

(١) أخرجه البخارى، حديث (٤٦٤٠).

شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك، قام من الليل يصلى، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم: «لقد أعطيت الليلة خمسًا ما أعطيهن أحد قبلي، أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة، وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه، ونصرت على العدو بالرعب ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لملئ منى رعبًا، وأحلت لى الغنائم أكلها، وكان من قبلي يعظمون أكلها كانوا يحرقونها وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا، وإنما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت وكان من قبلي يعظمون ذلك إنما كانوا يصلون فى بيعهم وكنائسهم، والخامسة هى ما هى قيل لى: سل فإن كل نبي قد سأل فأخرت مسألتى إلى يوم القيامة فهى لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله» إسناد جيد قوى أيضًا ولم يخرجوه.

وقال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن أبي موسى الأشعري، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «من سمع بى من أمتى يهودى أو نصرانى، فلم يؤمن بى لم يدخل الجنة». وهذا الحديث فى صحيح مسلم من وجه آخر، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار».

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة حدثنا أبو يونس - وهو سليم بن جبير - عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذى نفسى بيده، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة: يهودى أو نصرانى، ثم يموت ولا يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار». تفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد<sup>(٢)</sup>: حدثنا حسين بن محمد حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي بردة عن أبي موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسًا: بعثت إلى الأحمر والأسود، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لمن كان قبلى ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة وليس من نبي إلا وقد سأل الشفاعة، وإنى قد اختبأت شفاعتى، ثم جعلتها لمن مات من أمتى لم يشرك بالله شيئًا».

وهذا أيضًا إسناد صحيح<sup>(٣)</sup>، ولم أرهم خرجوه، والله أعلم، وله مثله من حديث ابن عمر بسند جيد أيضًا، وهذا الحديث ثابت فى الصحيحين أيضًا من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا، فأبىما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى الغنائم، ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة».

وقوله: ﴿الَّذِى لَمْ يُلْكَ السَّكْرَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ﴾ صفة الله تعالى، فى قول: ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ أى إن الذى أرسلنى هو خالق كل شىء وربى ومليكه الذى بيده الملك والإحياء والإماتة وله الحكم. وقوله: ﴿فَتَأْتُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَمِينِ﴾: أخبرهم أنه رسول الله إليهم ثم أمرهم باتباعه والإيمان به، ﴿النَّبِيِّ الْأَمِينِ﴾ أى: الذى وعدتم به وبشرتم به فى الكتب المتقدمة، فإنه منعوت

(١) أخرجه أحمد، حديث (١٩٠٤٢).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٤٣٨)، ومسلم برقم (٥٢١)، والنسائي برقم (٤٣٢).

بذلك في كتبهم؛ ولهذا قال: ﴿الْحَقُّ الْأَيْتِيُّ﴾ وقوله: ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أى يصدق قوله عمله، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ﴿وَأَتَّبِعُوهُ﴾ أى اسلكوا طريقه واقفوا أثره ﴿لَمَّا لَكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أى إلى الصراط المستقيم.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن بنى إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به، كما قال تعالى: ﴿مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلِأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّكَ أَفْهَمُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِن بَيْنِهِمْ مِنَ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا بَلَغَ لِقَاءَهُمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُعْثِرُونَ﴾ [القصاص: ٥٢-٥٤] الآية.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آوَوْا إِلَى اللَّهِ مِن قَبْلِهِ إِنَّا يَسُئِلُهُمْ بِحَبْرٍ مِّمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ وَإِنَّا لَكَنَّا لَهُمْ لَمَعْفُولًا وَيَصْرُخُونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُونَ لِيَوْمِئِذٍ خُشوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]. قد ذكر ابن جرير في تفسيرها خبراً عجيباً، فقال: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا حجاج، عن ابن جريج قوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ قال: بلغنى أن بنى إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم، وكفروا - وكانوا اثني عشر سبطاً - تبرأ سبط منهم مما صنعوا، واعتذروا، وسألوا الله، عز وجل، أن يفرق بينهم وبينهم ففتح الله لهم نفقاً في الأرض، فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين، فهم هنالك حنفاء مسلمين يستقبلون قبلتنا. قال ابن جريج: قال ابن عباس: فذلك قوله: ﴿وَقَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِيَلِيقَ إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدَ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَوِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤] أو «وعد الآخرة»: عيسى ابن مريم - قال ابن جريج: قال ابن عباس: ساروا في السرب سنة ونصفاً. وقال ابن عيينة، عن صدقة أبي الهذيل، عن السدى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ قال: قوم بينكم وبينهم نهر من شهد.

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَّةً وَأَرْجَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ أَنَّهُ أَتَىٰ مَضْرِبَ بِمِصْرَ الْعَجْرَةَ فَأَنْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْقَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَلْحِيبٍ مَا رَزَقْنَاهُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ وَإِذِ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَفْعِرْ لَكُمْ حَبِيبَتِكُمْ سَرَيِدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْرًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

تقدم تفسير هذا كله في سورة «البقرة» وهي مدنية، وهذا السياق مكي، ونبهنا على الفرق بين هذا السياق، وذلك بما أغنى عن إعادته هنا، والله الحمد والمنة.

﴿وَسَأَلْتَهُمُ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ إِذِ اسْتَبْتِ إِذِ تَأْتِيهِمْ

جِيَتَانَهُمْ يَوْمَ سَكَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْتَوُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبَلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٦٥﴾

هذا السياق هو بسط لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْكُمْ فِي النَّبِيِّ﴾ الآية [البقرة: ٦٥]، يقول تعالى لنبية صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ﴾ أى واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، فجاجأتهم نعمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم فى المخالفة، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها فى كتبهم؛ لثلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم. وهذه القرية هى «أيلة»، وهى على شاطئ بحر القلزم. قال محمد بن إسحاق: عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ﴾ قال: هى قرية يقال لها: «أيلة» بين مدين والطور. وكذا قال عكرمة، ومجاهد وقتادة والسدى. وقال عبد الله بن كثير القارئ: سمعنا أنها أيلة. وقيل: هى مدين، وهو رواية عن ابن عباس، وقال ابن زيد: هى قرية يقال لها «متنا» بين مدين وعينونا. وقوله: ﴿إِذْ يَدْعُونَ فِي النَّبِيِّ﴾ أى يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاية به إذ ذاك. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ جِيَتَانَهُمْ يَوْمَ سَكَبْتِهِمْ شُرْعًا﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: أى ظاهرة على الماء.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿شُرْعًا﴾ من كل مكان. قال ابن جرير وقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْتَوُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبَلُوهُمْ﴾ أى نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء فى اليوم المحرم عليهم صيده وإخفائه عنهم فى اليوم الحلال لهم صيده ﴿كَذَلِكَ نَبَلُوهُمْ﴾ نختبرهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يقول: بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها. وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله، بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التى معناها فى الباطن تعاطى الحرام. وقد قال الفقيه الإمام أبو عبد الله بن بطة، رحمه الله: حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفرانى حدثنا يزيد بن هارون حدثنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأذى الحيل». وهذا إسناد جيد، فإن أحمد بن محمد بن مسلم هذا ذكره الخطيب فى تاريخه ووثقه وباقى رجاله مشهورون ثقات، ويصحح الترمذى بمثل هذا الإسناد كثيرا.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إلی رَبِّنَا وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ ﴿٦٦﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجْبَعْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِزَابِهِمْ يَكْسِبِينَ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٨﴾﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور، واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، كما تقدم بيانه فى سورة البقرة، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه، ولكنها قالت للمنكرة: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أى لم تنهون هؤلاء، وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله؟ فلا فائدة فى نهيكم إياهم.

قالت لهم المنكرة: ﴿مَمْدَرَةٌ إِنْ رَزَيْكُمُ﴾ . قرأ بعضهم بالرفع ، كأنه على تقدير : هذه معذرة وقرأ آخرون بالنصب ، أى نفل ذلك ﴿مَمْدَرَةٌ إِنْ رَزَيْكُمُ﴾ أى فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَعُونَ﴾ يقولون : ولعل لهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه ، ويرجعون إلى الله تائبين فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم .

قال تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أى : فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة ، ﴿أَجْمِنًا الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى ارتكبوا المعصية ﴿بِعَذَابٍ بَيِّنٍ﴾ ، فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين ، وسكت عن الساكئين ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فهم لا يستحقون مدحا فيمدحوا ، ولا ارتكبوا عظيما فيذموا ، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم : هل كانوا من الهالكين أو من الناجين ؟ على قولين : وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعْزِيهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال : هى قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة ، يقال لها : «أيلة» فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم ، وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعا فى ساحل البحر فإذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها ، فمضى على ذلك ما شاء الله ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم فنهتهم طائفة وقالوا : تأخذونها وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم ؟ فلم يزدادوا إلا غيا وعتوا ، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النهاء : تعلمون أن هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب ، ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ وكانوا أشد غضبا لله من الطائفة الأخرى فقالوا : ﴿مَمْدَرَةٌ إِنْ رَزَيْكُمُ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَعُونَ﴾ ، وكل قد كانوا يبهون فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا : ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ ، والذين قالوا : ﴿مَمْدَرَةٌ إِنْ رَزَيْكُمُ﴾ ، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان ، فجعلهم قردة . وروى العوفى ، عن ابن عباس قريبا من هذا .

وقال حماد بن زيد عن داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعْزِيهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ ، قال : ما أدرى أنجا الذين قالوا : ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أم لا ؟ قال : فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا ، فكسانى حلة . وقال عبد الرزاق : أخبرنا ابن جريج حدثنى رجل عن عكرمة قال : جئت ابن عباس يوما وهو يبكى وإذا المصحف فى حجره فأعظمت أن أدنو منه ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست فقلت : ما يبكيك يا ابن عباس ؟ جعلنى الله فداك قال : فقال : هؤلاء الوراق . قال : وإذا هو فى سورة «الأعراف» قال : تعرف أيلة ؟ قلت : نعم . قال : فإنه كان بها حى من اليهود سبقت الحيتان إليهم يوم السبت ، ثم غاصت لا يقدرون عليها حتى يفوصوا بعد كد ومؤنة شديدة ، كانت تأتيهم يوم سبتهم شرعا بيضاء سمانا كأنها الماخض تنتطح ظهرها لبطونها بأفئيتهم . فكانوا كذلك برهة من الدهر ، ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال : إنما نهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت ، فخذوها فيه ، وكلوها فى غيره من الأيام ، فقالت ذلك طائفة منهم ، وقالت طائفة : بل نهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت فكانوا كذلك حتى جاءت الجمعة المقبلة فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها ، واعتزلت طائفة ذات اليمين ، وتحت واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت . وقال الأيمنون : ويلكم ، الله نهاكم أن تتعرضوا لعقوبة الله .

وقال الأيسرون : ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعْزِيهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ ؟ قال : الأيمنون ﴿مَمْدَرَةٌ إِنْ

رَبِّكَزُ وَاللَّهُمَّ يَنْفُورُونَ﴾، أى ينتهون، إن ينتهوا فهو أحب إلينا أن لا يصابوا ولا يهلكوا: وإن لم ينتهوا فمعدرة إلى ربكم فمضوا على الخطيئة، وقال الأيمنون: فقد فعلتم يا أعداء الله. والله لا نبايتكم الليلة فى مدينتكم، والله ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب، فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا، فلم يجابوا فوضعوا سلمًا، وأعلوا سور المدينة رجلاً، فالتفت إليهم، فقال: أى عباد الله، قرده والله تعادى تعاوى لها أذئاب، قال: ففتحوا فدخلوا عليهم فعرفت القرد أنسابها من الإنس ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة فجعلت القرد يأتونها نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكي، فيقول: ألم ننهكم عن كذا؟ فتقول برأسها، أى نعم. ثم قرأ ابن عباس: ﴿فَلَمَّا سَوَا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجْمَعًا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ بَيْعِيسٍ﴾ قال: فأرى الذين نهوا قد نجوا، ولا أرى الآخرين ذكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها. قال: قلت: جعلنى الله فداك، ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه، وخالفوهم وقالوا: ﴿لِمَ تَظُنُّونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ قال: فأمر لى فكسيت ثوبين غليظين. وكذا روى مجاهد عنه.

وقال ابن جرير: حدثنا يونس، أخبرنا أشهب بن عبد العزيز عن مالك قال: زعم ابن رومان أن قوله تعالى: ﴿تَأْتِيهِمْ جِثَاتُهُمْ يَوْمَ سَكَتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْئُرُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣] قال: كانت تأتيتهم يوم السبت، فإذا كان المساء ذهبت فلا يرى منها شيء إلى يوم السبت الآخر، فاتخذ - لذلك - رجل خيطًا ووتدًا، فربط حوتًا منها فى الماء يوم السبت، حتى إذا أمسوا ليلة الأحد أخذه فاشتواه، فوجد الناس ريحه، فأتوه فسألوه عن ذلك فوجدهم، فلم يزالوا به حتى قال لهم: فإنه جلد حوت وجدناه، فلما كان السبت الآخر فعل مثل ذلك - ولا أدرى لعله قال: ربط حوتين - فلما أمسى من ليلة الأحد أخذه فاشتواه، فوجدوا رائحة فجاءوا فسألوه فقال لهم: لو شتمت صنعتكم كما أصنع. فقالوا له: وما صنعت؟ فأخبرهم، ففعلوا مثل ما فعل، حتى كثر ذلك. وكانت لهم مدينة لها ريش يغلونها عليهم، فأصابهم من المسخ ما أصابهم فغدا عليهم جيرانهم ممن كانوا حولهم يطلبون منهم ما يطلب الناس فوجدوا المدينة مغلقة عليهم فنادوا فلم يجيبوهم فتسوروا عليهم فإذا هم قرده فجعل القرد يدنو يتمسح بمن كان يعرف قبل ذلك ويدنو منه ويتمسح به، وقد قدمنا فى سورة «البقرة» من الآثار فى خبر هذه القرية ما فيه مقنع وكفاية، ولله الحمد والمنة.

(القول الثانى): أن الساكتين كانوا من الهالكين. قال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس؛ أنه قال: ابتدعوا السبت فابتلوا فيه، فحرمت عليهم فيه الحيتان فكانوا إذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها فى البحر فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تر حتى السبت المقبل، فإذا جاء السبت جاءت شرعًا فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا كذلك ثم إن رجلاً منهم أخذ حوتًا فخزم أنفه ثم ضرب له وتدًا فى الساحل وربطه وتركه فى الماء فلما كان الغد أخذه فشواه فأكله ففعل ذلك وهم ينظرون ولا ينكرون ولا ينهونهم أحد إلا عصبية منهم نهوه حتى ظهر ذلك فى الأسواق ففعل علانية. قال: فقالت: طائفة للذين ينهونهم: ﴿لِمَ تَظُنُّونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْدَرَةٌ إِنَّكَ رَبِّكَزُ﴾، فقالوا: نسخط أعمالهم ﴿وَاللَّهُمَّ يَنْفُورُونَ فَلَمَّا سَوَا﴾ - إلى قوله: - ﴿قُرْدَةٌ خَنِيصِيَّةٌ﴾.

قال ابن عباس: كانوا ثلاثاً: ثلث نهوا، وثلث قالوا: ﴿لِمَ تَظُنُّونَ قَوْمًا أَنَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، وثلث أصحاب الخطيئة، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم. وهذا إسناد جيد عن ابن عباس ولكن رجوعه إلى قول عكرمة في نجاة الساكتين، أولى من القول بهذا؛ لأنه تبيين حالهم بعد ذلك، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَيْعَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعٌ ﴿١٠١﴾﴾ فيه قراءات كثيرة، ومعناه في قول مجاهد: الشديد، وفي رواية: الأيم وقال قتادة: موجه، والكل متقارب، والله أعلم. وقوله: ﴿خَنِيصِينَ﴾ أى ذليلين حقيرين مهانين.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَيْعَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعٌ ﴿١٠١﴾﴾  
 الْعُقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

﴿تَأَذَّنَ﴾: تفعل من الأذان أى: أعلم قاله مجاهد، وقال غيره: أمر. وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا تلقيت باللام في قوله: ﴿لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أى على اليهود: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْبَيْعَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أى، بسبب عصيانهم ومخالفتهم وأمر الله وشرعه واحتياهم على المحارم. ويقال: إن موسى، عليه السلام، ضرب عليهم الخراج، سبع سنين - وقيل: ثلاث عشرة سنة - وكان أول من ضرب الخراج، ثم كانوا فى قهر الملوك من اليونانيين والكشديانيين والكلدانيين، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم إياهم وأخذهم منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلام ومحمد ﷺ فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الخراج والجزية. قال العوفى، عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية قال: هى المسكنة وأخذ الجزية منهم. وقال على بن أبى طلحة عنه: هى الجزية، والذى يسومهم سوء العذاب: محمد رسول الله ﷺ وأمه إلى يوم القيامة. وكذا قال سعيد بن جبير، وابن جريج والسدى وقاتدة، وقال عبد الرزاق: عن معمر عن عبد الكريم الجزرى عن سعيد بن المسيب قال: يستحب أن تبعث الأنباط فى الجزية قلت: ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصاراً للدجال، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم، عليه السلام، وذلك آخر الزمان.

وقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعٌ الْعُقَابِ﴾ أى لمن عصاه وخالف شرعه، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى لمن تاب إليه وأتاب. وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة، لئلا يحصل اليأس، فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيراً؛ لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف.

﴿وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أَصْحَابًا مِّنْهُمْ وَوَعَدْنَا لَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ اللَّهِ لَعْنًا وَأَعَدْنَا لَهُمْ سَعِيرًا ﴿١٠٣﴾﴾  
 ﴿وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أَصْحَابًا مِّنْهُمْ وَوَعَدْنَا لَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ اللَّهِ لَعْنًا وَأَعَدْنَا لَهُمْ سَعِيرًا ﴿١٠٣﴾﴾  
 وَالسَّيِّئَاتِ لَهُمْ لَعْنَةٌ بَئِيسَةٌ ﴿١٠٤﴾﴾ فخلّف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن ياتهم عرض مثل الذى يأخذون آزر يؤخذ عنهم يشق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرّسوا ما فيه والأدوار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تمقلون ﴿١٠٥﴾ والذين يمسكوت بالكتاب وأقاموا الصلوة إننا لا نضيع أجر الصالحين ﴿١٠٦﴾

يذكر تعالى أنه فرقهم فى الأرض أمما أى طوائف وفرقا كما قال: ﴿وَقَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِيَلِ إِسْرَائِيلَ أَتَىٰكَ الْأَرْضَ فَلَمَّا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةَ جِثَاءً بَكَرَ لَيْفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤]. ﴿مِنْهُمْ أَصْحَابًا مِّنْهُمْ وَوَعَدْنَا لَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ اللَّهِ لَعْنًا﴾ أى فيهم الصالح وغير ذلك، كقول الجن: ﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمَا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَائِفًا قَدَا﴾ [الجن: ١١]،

﴿وَبَوَّأْنَهُمْ﴾ أى اختبرناهم ﴿بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أى بالرءاء والشدة، والرغبة والرهبه، والعافيه والبلاء، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ .

ثم قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَآءِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ يقول تعالى: فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح، خلف آخر لا خير فيهم، وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة - وقال مجاهد: هم النصارى - وقد يكون أعم من ذلك، ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ أى يعترضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا، ويسوفون أنفسهم ويعدون بالتوبة، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ يَتْلَهُمْ يَأْخُذُوهُ﴾ وكما قال سعيد بن جبير: يعملون الذنب ثم يستغفرون الله، منه ويعترفون لله فإن عرض ذلك الذنب أخذه. وقال مجاهد فى قوله تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ .

قال: لا يشرف لهم شيء من الدنيا إلا أخذه حلالاً كان أو حراماً ويتمنون المغفرة ﴿وَيَقُولُونَ سَيَغْفُرَ لَنَا وَإِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ يَتْلَهُمْ يَأْخُذُوهُ﴾، وقال قتادة فى قوله ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَآءِهِمْ خَلْفٌ﴾: إى والله لخلف سوء ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ بعد أنبيائهم ورسلمهم أورثهم الله وعهد إليهم، وقال الله تعالى فى آية أخرى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَآءِهِمْ خَلْفٌ أَصَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ الآية [مریم: ٥٩]. قال: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيَغْفُرَ لَنَا﴾، تمنوا على الله أمانى وغرة يغترون بها، ﴿وَإِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ يَتْلَهُمْ يَأْخُذُوهُ﴾ لا يشغلهم شيء ولا ينههم شيء، عن ذلك كلما هف لهم شيء من الدنيا أكلوه لا يبالون حلالاً كان أو حراماً. وقال السدى فى قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَآءِهِمْ خَلْفٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ قال: كانت بنو إسرائيل لا يستقصون قاصياً إلا ارتشى فى الحكم، وإن خيارهم اجتمعوا فأخذ بعضهم على بعض اليهود أن لا يفعلوا ولا يرتشوا، فجعل الرجل منهم إذا استقصى ارتشى فيقال له: ما شأنك ترتشى فى الحكم؟ فيقول: «سيغفر لى»، فتقطع عليه البقية الآخرون من بنى إسرائيل فيما صنع، فإذا مات أو نزع، وجعل مكانه رجل ممن كان يظعن عليه، فيرتشى، يقول: وإن يأت الآخريين عرض الدنيا يأخذوه.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يُوْحَدْ عَلَيْهِمُ يَتَّقُوا الْكِتَابَ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ الآية يقول تعالى منكرًا عليهم فى صنعهم هذا مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبين الحق للناس، ولا يكتفونه كقوله: ﴿وَرِثَ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْفُرُونَهُ فَبَدُوهُ وَرَأَىٰ ظُهُورَهُمْ وَاشْتَرَأَ بِهِ مِنْكَ لِقِيلاً فَتَسَّ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آله عمران: ١٨٧].

وقال ابن جريج: قال ابن عباس: ﴿أَلَمْ يُوْحَدْ عَلَيْهِمُ يَتَّقُوا الْكِتَابَ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ قال: فيما يتمنون على الله من غفران ذنوبهم التى لا يزالون يعودون فيها، ولا يتوبون منها.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ الْأَخْرَجُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يرغبهم فى جزيل ثوابه، ويحذرهم من وبيل عقابه، أى وثوابى وما عندى خير لمن اتقى المحارم، وترك هوى نفسه، وأقبل على طاعة ربه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يقول: أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندى عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير؟ ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذى يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ كما هو مكتوب فيه فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُسْكِنُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أى اعتصموا به واقتدوا بأوامره، وتركوا زواجره ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُوَسِّعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ .

﴿ وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا الْهَرَبْتُمْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٣٧)

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ يقول: رفعناه، وهو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بَيْنَيْهِمُ﴾ [النساء: ١٥٤].

وقال سفيان الثوري، عن الأعمش عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس: رفعت الملائكة فوق رؤسهم.

وقال القاسم<sup>(١)</sup> بن أبي أيوب عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: ثم سار بهم موسى عليه السلام إلى الأرض المقدسة وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب وأمرهم بالذي أمر الله أن يبلغهم من الوظائف فنقلت عليهم وأبوا أن يقرؤا بها حتى نتق الله الجبل فوقهم ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ قال: رفعت الملائكة فوق رؤسهم رواه النسائي بطوله.

وقال سنيد بن داود في تفسيره عن حجاج بن محمد عن أبي بكر بن عبد الله قال: هذا كتاب أتقبلونه بما فيه فإن فيه؟ بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم وما أمركم وما نهاكم؟ قالوا: انشر علينا ما فيها فإن كانت فرائضها وحدودها يسيرة قبلناها.

قال: أقبلوها بما فيها قالوا: لا حتى نعلم ما فيها، كيف حدودها وفرائضها فراجعوه مراراً فأوحى الله إلى الجبل فانقلع فارتفع في السماء حتى إذا كان بين رؤسهم وبين السماء قال لهم موسى: ألا ترون ما يقول ربي عز وجل؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل. قال: فحدثني الحسن البصري قال: لما نظروا إلى الجبل خر كل رجل ساجداً على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقا من أن يسقط عليه، فكذلك ليس اليوم في الأرض يهودى يسجد إلا على حاجبه الأيسر، يقولون: هذه السجدة التي رفعت بها العقوبة.

قال أبو بكر: فلما نشر الألواح فيها كتاب الله كتبه بيده، لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز، فليس اليوم يهودى على وجه الأرض صغير، ولا كبير، تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونغض لها رأسه، أى حوّل كما قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْهُنَّ لِكَبِّ رُءُوسِهِمْ﴾ [الإسراء: ٥١] والله أعلم.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿٣٧﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَنهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُتَعَبِلُونَ ﴿٣٨﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ

يَرْجِعُونَ ﴿٣٩﴾

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكنهم، وأنه لا إله إلا هو. كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿فَأَقْوَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وفي الصحيحين<sup>(٢)</sup> عن أبي

(١) سبق تخريجه وهو جزء من حديث الفتون. (٢) سبق تخريجه.

هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة - وفى رواية على هذه الملة - فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه، كما تولد بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» وفى صحيح مسلم<sup>(١)</sup> عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحلت لهم» .

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير<sup>(٢)</sup>، رحمه الله: حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرنى السرى بن يحيى أن الحسن بن أبى الحسن حدثهم عن الأسود بن سريع من بنى سعد قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه ثم قال: «ما بال أقوام يتناولون الذرية؟» فقال رجل: يا رسول الله، أليسوا أبناء المشركين؟ فقال: «إن خياركم أبناء المشركين! ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها، فأبواها يهودانها وينصرانها». قال الحسن: والله لقد قال الله فى كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية .

وقد رواه الإمام أحمد، عن إسماعيل بن عليّة عن يونس بن عبيد عن الحسن البصرى به، وأخرجه النسائى فى سننه من حديث هشيم عن يونس بن عبيد عن الحسن قال: حدثنى الأسود بن سريع فذكره، ولم يذكر قول الحسن البصرى واستحضاره الآية عند ذلك. وقد وردت أحاديث فى أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وفى بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم. قال الإمام أحمد<sup>(٣)</sup>: حدثنا حجاج حدثنا شعبة عن أبى عمران الجونى عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرايت لو كان لك ما على الأرض من شىء أكنت مفتدياً به؟» قال: «فيقول: نعم». فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بى». أخرجاه فى الصحيحين، من حديث شعبة، به.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا جرير - يعنى ابن حازم - عن كلثوم بن جبير<sup>(٤)</sup>، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم، عليه السلام، بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فشرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ قُولُوا﴾ إلى قوله: ﴿الْمُطَلُونَ﴾ . وقد روى هذا الحديث النسائى فى كتاب التفسير من سننه، عن محمد بن عبد الرحيم - صاعقة - عن حسين بن محمد المروزى به. ورواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث حسين بن محمد به، إلا أن ابن أبى حاتم جعله موقوفاً، وأخرجه الحاكم فى مستدرکه من حديث حسين بن محمد وغيره عن جرير بن حازم عن كلثوم بن جبير به. وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد

(١) سبق تخريجه . (٢) رواه الطبرى (٩/١١٣).

(٣) أخرجه البخارى برقم (٣٣٣٤)، ومسلم برقم (٢٨٠٥)، وأحمد، حديث (١١٨٨٠).

(٤) أخرجه أحمد (٢٤٥١)، والطبرى فى تفسيره (٩/١١١)، والحاكم فى المستدرک (١/٨٠)، حديث (٧٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الهيثمى فى المجمع (٧/٢٥) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة - وفى رواية على هذه الملة - فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه، كما تولد بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» وفى صحيح مسلم<sup>(١)</sup> عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحلت لهم» .

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير<sup>(٢)</sup>، رحمه الله: حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرنى السرى بن يحيى أن الحسن بن أبى الحسن حدثهم عن الأسود بن سريع من بنى سعد قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه ثم قال: «ما بال أقوام يتناولون الذرية؟» فقال رجل: يا رسول الله، أليسوا أبناء المشركين؟ فقال: «إن خياركم أبناء المشركين! ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها، فأبواها يهودانها وينصرانها». قال الحسن: والله لقد قال الله فى كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية .

وقد رواه الإمام أحمد، عن إسماعيل بن عليّة عن يونس بن عبيد عن الحسن البصرى به، وأخرجه النسائى فى سننه من حديث هشيم عن يونس بن عبيد عن الحسن قال: حدثنى الأسود بن سريع فذكره، ولم يذكر قول الحسن البصرى واستحضاره الآية عند ذلك. وقد وردت أحاديث فى أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وفى بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم. قال الإمام أحمد<sup>(٣)</sup>: حدثنا حجاج حدثنا شعبة عن أبى عمران الجونى عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرايت لو كان لك ما على الأرض من شىء أكنت مفتدياً به؟» قال: «فيقول: نعم». فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بى». أخرجاه فى الصحيحين، من حديث شعبة، به.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا جرير - يعنى ابن حازم - عن كلثوم بن جبير<sup>(٤)</sup>، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم، عليه السلام، بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فشرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ قُولُوا﴾ إلى قوله: ﴿الْمُطَلُونَ﴾ . وقد روى هذا الحديث النسائى فى كتاب التفسير من سننه، عن محمد بن عبد الرحيم - صاعقة - عن حسين بن محمد المروزى به. ورواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث حسين بن محمد به، إلا أن ابن أبى حاتم جعله موقوفاً، وأخرجه الحاكم فى مستدركه من حديث حسين بن محمد وغيره عن جرير بن حازم عن كلثوم بن جبير به. وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٣٣٤)، ومسلم برقم (٢٨٠٥)، وأحمد، حديث (١١٨٨٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٥١)، والطبرى فى تفسيره (١١١/٩)، والحاكم فى المستدرک (٨٠/١)، حديث (٧٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الهيثمى فى المجمع (٢٥/٧) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

قال: خلقت هؤلاء للجنة، ويعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون».

فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: «إذا خلق الله العبد للجنة، استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار، استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار». وهكذا رواه أبو داود عن القعنبى - والنسائي عن قتيبة - والترمذى فى تفسيرهما عن إسحاق بن موسى عن معن، وابن أبى حاتم، عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب. وابن جرير عن روح بن عباد وسعيد بن عبد الحميد بن جعفر، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه من رواية أبى مصعب الزبيري كلهم عن الإمام مالك بن أنس به. قال الترمذى: وهذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع عمر وكذا قاله أبو حاتم، وأبو زرعة زاد أبو حاتم: وبينهما نعيم بن ربيعة. وهذا الذى قاله أبو حاتم رواه أبو داود فى سننه عن محمد بن مصفى عن بقرية عن عمر بن جعشم القرشى عن زيد بن أبى أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، عن مسلم بن يسار الجهنى، عن نعيم بن ربيعة قال: كنت عند عمر بن الخطاب، وقد سئل عن هذه الآية: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُيُوتِ أَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ»، فذكره. وقال الحافظ الدارقطنى: وقد تابع عمر بن جعشم يزيد بن سنان أبو فروة الرهاوى، وقولهما أولى بالصواب من قول مالك والله أعلم. قلت: الظاهر أن الإمام مالكا إنما أسقط ذكر «نعيم بن ربيعة» عمداً؛ لما جهل حال نعيم بن ربيعة ولم يعرفه فإنه غير معروف إلا فى هذا الحديث، ولذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيهم؛ ولهذا يرسل كثيراً من المرفوعات ويقطع كثيراً من الموصولات، والله أعلم.

(حديث آخر) <sup>(١)</sup>: قال الترمذى عند تفسيره هذه الآية: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا أبو نعيم حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيننا من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: أى رب، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك. فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، قال: أى رب، من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك، يقال له: داود. قال: رب، وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة. قال: أى رب، وقد وهبت له من عمرى أربعين سنة، فلما انقضى عمر آدم، جاءه ملك الموت قال: أو لم يبق من عمرى أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسى آدم فنسيت ذريته وخطيء آدم فخطئت ذريته». ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح، وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ. ورواه الحاكم فى مستدركه، من حديث أبى نعيم الفضل بن دكين به. وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ورواه ابن أبى حاتم فى تفسيره، من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبىه، أنه حدث عن عطاء بن يسار، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن

(١) أخرجه الترمذى، حديث (٣٠٧٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة. والحاكم فى المستدرک (٦٤٠/٢) حديث (٤١٣٢)، عن أبى هريرة، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

رسول الله ﷺ، فذكر نحو ما تقدم إلى أن قال: «ثم عرضهم على آدم فقال: يا آدم، هؤلاء ذريتك. وإذا فيهم الأجدم والأبرص والأعمى، وأنواع الأسقام، فقال آدم: يا رب، لم فعلت هذا بذريتي؟ قال: كي تشكر نعمتي. وقال آدم: يا رب، من هؤلاء الذين أراهم أظهر الناس نورًا؟ قال: هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك». ثم ذكر قصة داود، كنحو ما تقدم.

(حديث آخر) <sup>(١)</sup>: روى عبد الرحمن بن قتادة النضري، عن أبيه عن هشام بن حكيم رضى الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أتبدأ الأعمال، أم قد قضى القضاء؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم، ثم أشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بهم في كفيه» ثم قال: «هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، فأهل الجنة ليسرون لعمل أهل الجنة، وأهل النار ليسرون لعمل أهل النار». رواه ابن جرير، وابن مردويه من طرق عنه.

(حديث آخر) <sup>(٢)</sup>: روى جعفر بن الزبير وهو ضعيف عن القاسم عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله الخلق وقضى القضية، أخذ أهل اليمين بيمينه وأهل الشمال بشماله، فقال: يا أصحاب اليمين. فقالوا: لبيك وسعديك. قال: أأست بربكم؟ قالوا: بلى. قال: يا أصحاب الشمال. قالوا: لبيك وسعديك. قال: أأست بربكم؟ قالوا: بلى. ثم خلط بينهم، فقال قائل له: يا رب، لم خلطت بينهم؟ قال: لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، ثم ردهم في صلب آدم». رواه ابن مردويه.

(أثر آخر): قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَىٰ مَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، الآيات قال: فجمعهم له يومئذ جميعاً، ما هو كائن منه إلى يوم القيامة فجعلهم في صورهم ثم استنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق، ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾؟ الآية قال: فإني أشهد عليكم السموات السبع، والأرضين السبع وأشهد عليكم أبائكم آدم أن تقولوا يوم القيامة: لم نعلم بهذا، اعلموا أنه لا إله غيري، ولا رب غيري ولا تشركوا بي شيئاً وإنى سأرسل إليكم رسلاً يذكرونكم عهدي وميثاقى وأنزل عليكم كتبي. قالوا: نشهد أنك ربنا وإلهنا، لا رب لنا غيرك ولا إله لنا غيرك. فأقروا له يومئذ بالطاعة، ورفع أباهم آدم فنظر إليهم، فرأى فيهم الغنى والفقير، وحسن الصورة ودون ذلك. فقال: يا رب، لو سويت بين عبادك؟ قال: إني أحببت أن أشكر. ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة، فهو الذى يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ الآية [الأحزاب: ٧]، وهو الذى يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] الآية.

ومن ذلك قال: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [النجم: ٥٦]، ومن ذلك قال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢] الآية.

رواه عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه، ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه في

(١) رواه الطبري (١١٧/٩) عن هشام بن حكيم، والطبراني في الكبير (١٦٨/٢٢)، حديث (٤٣٤).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٢٤٢/٨) حديث (٧٩٤٣) عن أبي أمامة.

تفاسيرهم، من رواية أبي جعفر الرازي به، وروى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدى وغير واحد من علماء السلف سياقات توافق هذه الأحاديث اكتفينا بإيرادها عن التطويل في تلك الآثار كلها، وبالله المستعان.

فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم، فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وفي حديث عبد الله بن عمرو وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان، كما تقدم ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطهرهم على التوحيد، كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي ومن رواية الحسن البصرى عن الأسود بن سريع وقد فسر الحسن الآية بذلك قالوا: ولهذا قال: ﴿وَرَأَىٰ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَيْتِهِ ءَادَمَ﴾ ولم يقل: «من آدم»، «من ظهورهم»، ولم يقل: «من ظهره» ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أى: جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْوَحْيَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال: ﴿وَيَجْمَعُكُمْ خُفَاءً الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال: ﴿كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّتِكُمْ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣]. ثم قال: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسَتْ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ أى: أوجدتهم شاهدين بذلك، قائلين له حالاً وقال. والشهادة تارة تكون بالقول، كقوله: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا﴾ الآية [الأنعام: ١٣٠]، وتارة تكون حالاً، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ [التوبة: ١٧] أى: حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [العاديات: ٧]، كما أن السؤال تارة يكون بالمقال، وتارة يكون بالحال، كقوله: ﴿وَمَا آتَاكُم مِّن كَثْرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ٣٤] قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا هذا، أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم فى الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قال من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه فإن قيل: إخبار الرسول ﷺ به كاف فى وجوده فالجواب: أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره.

وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التى فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد؛ ولهذا قال: ﴿أَن تَقُولُوا﴾ أى لثلاث تقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾ أى التوحيد ﴿غَافِلِينَ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا﴾ الآية.

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنشَخَ مِنْهَا فٱتَّبَعَهُ الشَّيْطٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغٰوِبِينَ﴾ ﴿٧٦﴾  
 ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ ءَأَخَذَ إِلَىٰ ٱلْأَرْضِ نَاتِبَ ۖ هُوَ ٱلَّذِى قَسَمَ لِمَن يَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتَرَكَّهُ يَلْهَثُ ذَٰلِكَ مِثْلَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا فَٱقْصِصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ سَاءَ مَثَلًا لِّلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا وَٱنْفُسِهِمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿٧٨﴾

قال عبد الرزاق، عن سفيان الثورى، عن الأعمش ومنصور عن أبى الضمى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنشَخَ مِنْهَا﴾ الآية قال: هو رجل من بنى إسرائيل، يقال له: بلعم بن أبر. وكذا رواه شعبة وغير واحد عن منصور به. وقال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة عن ابن عباس: هو صيفى بن الراهب. قال قتادة: وقال

كعب: كان رجلاً من أهل البلقاء وكان يعلم الاسم الأكبر وكان مقيماً ببيت المقدس مع الجبارين . وقال العوفي ، عن ابن عباس رضى الله عنه : هو رجل من أهل اليمن ، يقال له : بلعم ، آتاه الله آياته فتركها ، وقال مالك بن دينار : كان من علماء بنى إسرائيل وكان مجاب الدعوة يقدمونه فى الشدائد بعثه نبي الله موسى عليه السلام إلى ملك مدين يدعوهم إلى الله فأقطعهم وأعطاهم ففتح دينه وترك دين موسى عليه السلام . وقال سفيان بن عيينة عن حصين عن عمران بن الحارث عن ابن عباس : هو بلعم بن باعر ، وكذا قال مجاهد وعكرمة .

وقال ابن جرير : حدثني الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا إسرائيل عن مغيرة عن مجاهد عن ابن عباس قال : هو بلعام . وقالت ثقيف : هو أمية بن أبى الصلت . وقال شعبة عن يعلى بن عطاء عن نافع بن عاصم عن عبد الله بن عمرو فى قوله : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الْوَيْحِ مَا تَبَيَّنَتْ مَا بَيْنَنَا ﴾ الآية قال : هو صاحبكم أمية بن أبى الصلت . وقد روى من غير وجه ، عنه وهو صحيح إليه وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبى الصلت يشبهه ، فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة ولكنه لم ينتفع بعلمه ، فإنه أدرك زمان رسول الله ﷺ وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته وظهرت لكل من له بصيرة ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه وصار إلى موالاته المشركين ومناصرتهم وامتداحهم ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة ، قبحه الله . وقد جاء فى بعض الأحاديث «أنه ممن آمن لسانه ، ولم يؤمن قلبه» فإن له أشعاراً ربانية وحكمًا وفصاحة ولكنه لم يشرح الله صدره للإسلام .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا ابن أبى نمر حدثنا سفيان عن أبى سعيد الأعمش عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الْوَيْحِ مَا تَبَيَّنَتْ مَا بَيْنَنَا فَأَنْسَلِخْ مِنْهَا ﴾ قال : هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيهن ، وكانت له امرأة له منها ولد فقالت : اجعل لى منها واحدة قال : فلك واحدة فما الذى تريدان ؟ قالت : ادع الله أن يجعلنى أجمل امرأة فى بنى إسرائيل . فدعا الله ، فجعلها أجمل امرأة فى بنى إسرائيل ، فلما علمت أن ليس فيهن مثلها رغبت عنه وأرادت شيئاً آخر فدعا الله أن يجعلها كلبة فصارت كلبة فذهبت دعوتان فجاء بنوها فقالوا : ليس بنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها فادع الله أن يردنا إلى الحال التى كانت عليها ، فدعا الله ، فعادت كما كانت ، وذهبت الدعوات الثلاث ، وتسميت البسوس . غريب .

وأما المشهور فى سبب نزول هذه الآية الكريمة ، فإنما هو رجل من المتقدمين فى زمن بنى إسرائيل ، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : هو رجل من مدينة الجبارين ، يقال له : «بلعام» وكان يعلم اسم الله الأكبر .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره من علماء السلف : كان مجاب الدعوة ، ولا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه . وأغرب بل أبعد ، بل أخطأ من قال : كان قد أوتى النبوة فانسلك منها ، حكاه ابن جرير ، عن بعضهم ولا يصح ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : لما نزل موسى بهم - يعنى بالجبارين - ومن معه آتاه - يعنى بلعم - آتاه بنو عمه وقومه فقالوا : إن موسى رجل حديد ومع جنود كثيرة ، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا ، فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه . قال : إنى إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ، ذهبت دنياى وآخرتى . فلم يزالوا به حتى دعا عليهم ، فسلخه الله ما كان عليه ، فذلك

قوله تعالى: ﴿فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا فَاتِبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ الآية.

وقال السدي: إن الله لما انقضت الأربعون سنة التي قال الله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [المائدة: ٢٦]، بعث يوشع بن نون نبياً، فدعا بنى إسرائيل فأخبرهم أنه نبي، وأن الله أمره أن يقاتل الجبارين، فبايعوه وصدقوه، وانطلق رجل من بنى إسرائيل يقال له: «بلعم» فكان عالماً، يعلم الاسم الأعظم المكتوم، فكفر - لعنه الله - وأتى الجبارين وقال لهم: لا تهربوا بنى إسرائيل فإنى إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلكون! وكان عندهم فيما شاء من الدنيا، غير أنه كان لا يستطيع أن يأتي النساء؛ يعظمهن فكان ينكح أتاناً له وهو الذى قال الله تعالى: ﴿فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أى استحوذ عليه وعلى أمره فمهما أمره امتثل وأطاعه؛ ولهذا قال: ﴿فَكَانَ مِنَ الْفَآرِيسِ﴾ أى من الهالكين الحائرين البائسين. وقد ورد فى معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ<sup>(١)</sup> أبو يعلى الموصلى فى مسنده حيث قال: حدثنا محمد بن مرزوق حدثنا محمد بن بكر عن الصلت بن بهرام حدثنا الحسن حدثنا جندب البجلي فى هذا المسجد أن حذيفة يعنى ابن اليمان رضى الله عنه حدثه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن، حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان رداؤه الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله، انسلخ منه، ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك». قال: قلت: يا نبي الله أيهما أولى بالشرك: المرمى أو الرامى؟ قال: «بل الرامى». إسناد جيد، والصلت بن بهرام كان من ثقات الكوفيين، ولم يرم بشيء سوى الإرجاء، وقد وثقه الإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، وغيرهما.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أى لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التى آتيناه إياها، ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أى مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها، وأقبل على لذاتها ونعيمها، وغرته كما غرت غيره من غير أولى البصائر والنهى. وقال أبو الراهورى فى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ قال: تراءى له الشيطان على علوة من قنطرة بانياس، فسجدت الحمامة لله وسجد بلعام للشيطان، وكذا قال عبد الرحمن بن جبير بن نفير، وغير واحد.

وقال الإمام أبو جعفر ابن جرير، رحمه الله: وكان من قصة هذا الرجل ما حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر عن أبيه: أنه سئل عن هذه الآية ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾، فحدث عن سيار أنه كان رجلاً يقال له: بلعام، وكان مجاب الدعوة، قال: وإن موسى أقبل فى بنى إسرائيل يريد الأرض التى فيها بلعام أو قال: الشام قال: فرعب الناس منه رعباً شديداً، فأتوا بلعام فقالوا: ادع الله على هذا الرجل وجيشه، قال: حتى أوامر ربى - أو حتى أوامر - قال: فآمر فى الدعاء عليهم، فقيل له: لا تدع عليهم فإنهم عبادى وفيهم نبيهم، قال: فقال لقومه: إني قد أمرت ربى فى الدعاء عليهم وإني قد نهيت، فأهدوا له هدية فقبلها ثم راجعوه فقالوا: ادع عليهم فقال: حتى أوامر ربى فآمر فلم يحر إليه بشيء فقال: قد وامت فلم يأمرنى بشيء فقالوا: لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك المرة الأولى. قال: فأخذ يدعو عليهم، فإذا دعا عليهم جرى على لسانه الدعاء على

(١) أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٢٨٢/١)، والبخارى فى مسنده (٢٢٠/٧) حديث (٢٧٩٣).

قومه، وإذا أراد أن يدعو أن يفتح لقومه، دعا أن يفتح لموسى وجيشه - أو نحوًا من ذلك إن شاء الله . قال : فقالوا ما نراك تدعو إلا علينا، قال : ما يجرى على لساني إلا هكذا ولو دعوت عليه أيضًا ما استجيب لي ولكن سأدلكم على أمر عسى أن يكون فيه هلاكهم، إن الله يبغض الزنا، وإنهم إن وقعوا في الزنا هلكوا ورجوت أن يهلكهم الله فأخرجوا النساء تستقبلهم فإنهم قوم مسافرون فعسى أن يزونا فيهلكوا قال : ففعلوا فأخرجوا النساء تستقبلهم قال : وكان للملك ابنة، فذكر من عظمها ما الله أعلم به ! قال : فقال أبوها - أو بلعام - : لا تمكني نفسك إلا من موسى ! قال : ووقعوا في الزنا . قال : فأتاها رأس سبط من أسباط بني إسرائيل، فأرادها على نفسه، فقالت : ما أنا بممكنة نفسي إلا من موسى فقال : إن منزلتي كذا وكذا، وإن من حالي كذا وكذا؛ فأرسلت إلى أبيها تستأمره، قال : فقال لها : مكنيه، قال : ويأتيها رجل من بني هارون، ومعه الرمح فيطعنهما . قال : وأيده الله بقوة فانظمتها جميعًا، ورفعها على رمحه، فرأهما الناس - أو كما حدث - قال : وسلط الله عليهم الطاعون، فمات منهم سبعون ألفًا .

قال أبو المعتمر : فحدثني سيار : أن بلعامًا ركب حمارة له حتى أتى العلولى - أو قال : طريقًا من العلولى - جعل يضربها ولا تتقدم، وقامت عليه فقالت : علام تضربني ؟ أما ترى هذا الذى بين يديك ؟ فإذا الشيطان بين يديه، قال : فنزل وسجد له، قال الله تعالى : ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانكَلُ مِنْهَا﴾ إلى قوله : ﴿لَمَلَهُمْ يَنْفَكُونَ﴾ قال : فحدثني بهذا سيار ولا أدري لعله قد دخل فيه شيء من حديث غيره . قلت : هو بلعام - ويقال : بلعم - بن باعوراء، ويقال : ابن أبر، ويقال : ابن باعور بن شهوم بن قوשתم بن ماب بن لوط بن هاران - ويقال : بن حران - بن أزر . وكان يسكن قرية من قرى البلقاء . قال ابن عساکر : وهو الذى كان يعرف اسم الله الأعظم، فانسلخ من دينه، له ذكر فى القرآن . ثم أورد من قصته نحوًا مما ذكرناه ههنا، أورده عن وهب وغيره، والله أعلم .

وقال محمد بن إسحاق بن سيار : عن سالم أبى النضر؛ أنه حدث أن موسى عليه السلام، لما نزل فى أرض بنى كنعان من أرض الشام، أتى قوم بلعام إليه فقالوا له : هذا موسى بن عمران فى بنى إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بنى إسرائيل، وإنا قومك وليس لنا منزل وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج فادع الله عليهم، قال : ويلكم ! نبى الله معه الملائكة والمؤمنون، كيف أذهب أدهو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم ؟! قالوا له : ما لنا من منزل ! فلم يزالوا به يرفقونه ويتضرعون إليه حتى فتتوه فافتتن فركب حمارة له متوجهًا إلى الجبل الذى يطلعه على عسكر بنى إسرائيل وهو جبل حسيبان، فلما سار عليها غير كثير ربيضت به فنزل عنها فضربها حتى إذا أزلقها قامت فركبها، فلم تسر به كثيرًا حتى ربيضت به فضربها حتى إذا أزلقها أذن لها فكلمته حجة عليه فقالت : ويحك يا بلعم : أين تذهب ؟ أما ترى الملائكة أمامى تردنى عن وجهى هذا ؟ تذهب إلى نبى الله والمؤمنين لتدعو عليهم ؟ فلم ينزع عنها يضربها، فخلى الله سبيلها حين فعل بها ذلك، فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حسيبان على عسكر موسى وبنى إسرائيل جعل يدعو عليهم ولا يدعو عليهم بشر إلا صرف الله لسانه إلى قومه ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بنى إسرائيل .

فقال له قومو : أتدرى يا بلعم ما تصنع ؟ إنما تدعو لهم، وتدعو علينا ! قال : فهذا ما لا أملك، هذا



يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحق الناس بأولاهم باتباعه وناصرته ومؤازرته، كما أخبرتهم أنبياءهم بذلك وأمرتهم به؛ ولهذا من خالف منهم ما فى كتابه وكنهه فلم يعلم به العباد أحل الله به ذلًا فى الدنيا موصولاً بذل الآخرة.

وقوله: ﴿مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا بَيِّنَاتٌ لِّقَوْمٍ أَلِيمِينَ﴾ يقول تعالى: ﴿مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا بَيِّنَاتٌ لِّقَوْمٍ أَلِيمِينَ﴾ أى ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التى لا همة لها إلا فى تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه، واتبع هواه صار شبيهاً بالكلب وبش المثل مثله؛ ولهذا ثبت فى الصحيح<sup>(١)</sup> أن رسول الله ﷺ قال: «ليس لنا مثل السوء، العائد فى هبته كالكلب يعود فى قيئه».

وقوله: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أى ما ظلمهم الله، ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى، وطاعة المولى، إلى الركون إلى دار البلى، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىٌّ وَمَنْ يُضِلِّمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى: من هداه الله فإنه لا مضل له ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولهذا جاء فى حديث ابن مسعود<sup>(٢)</sup>: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله». الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد وأهل السنن، وغيرهم.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْإِنسِ وَالْإِنسِ لَمْ يَلْبَسْ قُلُوبًا لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَمْ يَعْنِمْ لَّا يَصِيرُونَ بِهَا وَلَمْ يَأْمُرْنَا لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿٣٨﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ أى خلقنا وجعلنا لجهنم ﴿كَثِيرًا مِّنَ الْإِنسِ وَالْإِنسِ﴾ أى: هيئاتهم لها، ويعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق، علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده فى كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، كما ورد فى صحيح مسلم<sup>(٣)</sup> عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء». وفى صحيح مسلم<sup>(٤)</sup> أيضاً، من حديث عائشة بنت طلحة عن خالتها عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت: «دعى النبي ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله طوبى له، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه. فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك يا عائشة؟ إن الله خلق الجنة، وخلق لها أهلاً،

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٦٢٢)، والترمذي حديث (١٢٩٨)، والنسائي حديث (٣٦٩٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٢١١٨)، والنسائي حديث (١٤٠٤)، وابن ماجه (١٨٩٢)، وأحمد برقم (٣٧١٢) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٥٣)، والترمذي حديث (٢١٥٦)، وأحمد حديث (٦٥٤٣) عن عبد الله بن عمرو.

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٦٢)، وأبو داود (٤٧١٣)، والنسائي (١٩٤٧)، وابن ماجه (٨٢)، وأحمد (٢٣٦١٢)، من حديث عائشة.

وهم فى أصلاب آبائهم، وخلق النار، وخلق لها أهلاً، وهم فى أصلاب آبائهم. وفى الصحيحين<sup>(١)</sup> من حديث ابن مسعود: «ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات، فيكتب: رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أم سعيد». وتقدم أن الله لما استخرج ذرية آدم من صلبه وجعلهم فريقين: أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، قال: «هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي». والأحاديث فى هذا كثيرة، ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَمْ أُعْينَ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَمْ يُؤْمَرْ أَفَآذٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ يعنى: ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التى جعلها الله سبباً للهداية، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِإِيْدِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦] الآية، وقال تعالى: ﴿مُؤْمِنٌ بِكُمْ عُتَىٰ فَهُمْ لَّا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، هذا فى حق المنافقين، وقال فى حق الكافرين: ﴿مُؤْمِنٌ بِكُمْ عُتَىٰ فَهُمْ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، ولم يكونوا صمًا ولا بكمًا ولا عميًا إلا عن الهدى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا لَّا تَعْمَىٰ الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال: ﴿وَمَنْ يَعْمُرْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَفِيضٌ لَهُ شِعْلَانَا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧].

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ أى هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التى لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا فى الذى يعيشها فى ظاهر الحياة الدنيا، كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْآيَةِ النَّبِيِّ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاةً وَبِدَاةً مُّؤْمِنٌ بِكُمْ عُتَىٰ﴾ [البقرة: ١٧١] أى: ومثلهم فى حال دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول؛ ولهذا قال فى هؤلاء: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أى: من الدواب، لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أنس بها، وإن لم تفقه كلامه بخلاف هؤلاء؛ ولأنها تفعل ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها بخلاف الكافر، فإنه إنما خلق لي عبد الله ويوحده فكفر بالله وأشرك به؛ ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة فى معاده، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفٰٓئِلُونَ﴾.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴿٣٧﴾

عن أبى هريرة<sup>(٢)</sup> رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعاً وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر». أخرجاه فى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة عن أبى الزناد عن الأعرج عنه، ورواه البخارى عن أبى اليمان عن شعيب عن أبى حمزة عن أبى الزناد به، وأخرجه الترمذى فى جامعه عن الجوزجاني عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن

(١) أخرجه البخارى (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣)، وأبو داود (٤٧٠٨) عن عبد الله بن مسعود.

(٢) أخرجه البخارى (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧)، والترمذى (٣٥٠٦)، وابن ماجه برقم (٣٨٦٠).

شعيب فذكر بسنده مثله، وزاد بعد قوله: «يحب الوتر: هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار، المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار، القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط، الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير، الحكيم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور، الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم، الرقيب المجيب الواسع الحكيم، الودود المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوى، المتين، الولي الحميد، المحصي المبدئ المعيد، المحيي المميت، الحي القيوم الواحد الماجد الواحد الأحد، الفرد الصمد، القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر، الظاهر الباطن الوالي المتعالي، البر التواب المنتقم العفو الرؤوف، مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني، المانع الضار النافع، النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور».

ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب، وقد روى من غير وجه عن أبي هريرة، ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث، ورواه ابن حبان في صحيحه من طريق صفوان به. وقد رواه ابن ماجه في سننه، من طريق آخر عن موسى بن عقبة عن الأعرج عن أبي هريرة مرفوعًا فسرده الأسماء كنحو مما تقدم بزيادة ونقصان.

والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أي أنهم جمعوها من القرآن. كما روى عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللغوي، والله أعلم. ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة في تسعة وتسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد<sup>(١)</sup> في مسنده عن يزيد بن هارون عن فضيل بن مرزوق عن أبي سلمة الجهني عن القاسم عن عبد الرحمن عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أصاب أحدًا قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن أمك، ناصيتي بيدك ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهب همي، إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدل مكانه فرحًا» فقيل: يا رسول الله أفلا نتعلمها؟ فقال: «بلى ينهي لكل من سمعها أن يتعلمها» وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البستي في صحيحه بمثله، وذكر الفقيه الإمام أبو بكر العربي أحد أئمة المالكية في كتابه: «الأحوذى في شرح الترمذي»؛ أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، فالله أعلم. وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ الَّذِينَ يُلْحِقُونَكَ فِيْ أَهْلِكَ﴾ قال: إلحاد الملحدين أن دعوا «اللات» في أسماء الله. وقال ابن جريج، عن مجاهد ﴿وَدُّواْ الَّذِينَ يُلْحِقُونَكَ فِيْ أَهْلِكَ﴾ قال: اشتقوا «اللات» من الله، والعزى من العزيز. وقال قتادة: يلحدون: يشركون. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الإلحاد: التكذيب. وأصل الإلحاد في كلام العرب: العدول عن القصد، والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد في القبر، لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

(١) أخرجه أحمد (٣٧٠٤)، وابن حبان في صحيحه (٢٥٣/٣)، حديث (٩٧٢).

### ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْلَمُونَ﴾ (١٣٥)

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا﴾ أى بعض الأمم ﴿أُمَّةً﴾ قائمة بالحق، قولاً وعملاً، ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾، يقولونه ويدعون إليه، ﴿وَبِهِ يَعْلَمُونَ﴾ يعملون ويقضون. وقد جاء فى الآثار أن المراد بهذه الأمة المذكورة فى الآية، هى هذه الأمة المحمدية. قال سعيد عن قتادة فى تفسير هذه الآية (١): بلغنى أن النبى ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية: «هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ﴿وَمَنْ قَوَّرَ مَوْسَىٰ أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]. وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس فى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْلَمُونَ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أمتى قوماً على الحق، حتى ينزل عيسى ابن مريم متى ما نزل». وفى الصحيحين (٢) عن معاوية بن أبى سفيان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى تقوم الساعة» وفى رواية: «حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك» وفى رواية: «وهم بالشام».

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣٦) وَأَمْلِ لَهُمْ إِنْ كَيْدَىٰ مَتِينٌ ﴿١٣٧﴾ يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣٦) ومعناه: أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش فى الدنيا، حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شىء، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا سَوَّأْنَا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥] ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَمْلِ لَهُمْ﴾ أى وساملى لهم، أى أطول لهم ما هم فيه ﴿إِنْ كَيْدَىٰ مَتِينٌ﴾ أى قوى شديد.

### ﴿أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (١٣٨)

يقول تعالى: ﴿أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ يعنى محمداً ﷺ ﴿مِنْ جِنَّةٍ﴾ أى ليس به جنون، بل هو رسول الله حقاً، دعا إلى حق، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: ظاهر لمن كان له لب وقلب يعقل به ويعى به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ بِرِجْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْفَىٰ وَقُرْدَىٰ ثُمَّ تَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبا: ٤٦]، يقول: إنما أطلب منكم أن تقوموا قياماً خالصاً لله، ليس فيه تعصب ولا عناد، ﴿مَشْفَىٰ وَقُرْدَىٰ﴾، أى مجتمعين ومتفرقين، ﴿ثُمَّ تَنْفَكُوا﴾ فى هذا الذى جاءكم بالرسالة من الله أبه جنون أم لا؟ فإنكم إذا فعلتم ذلك بان لكم وظهر أنه رسول الله حقاً وصدقاً. وقال قتادة بن دعامة (٣): ذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان على الصفا، فدعا قريشاً، فجعل يفخذهم فخذاً فخذاً: «يا بنى فلان، يا بنى فلان» فحذرهم بأس الله ووقائع الله، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون بات يصوت إلى الصباح أو حتى أصبح، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

(١) رواه الطبري (١٣٥/٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣١١)، ومسلم حديث (١٩٢٠)، وأبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢٢٩).

(٣) رواه ابن جرير (١٣٦/٩).

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَهُمْ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا في ملك الله وسلطانه في السموات والأرض، وفيما خلق من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه، ومن فعل من لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له فيؤمنوا به ويصدقوا رسوله، وينيبوا إلى طاعته، ويخلصوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه. وقوله: ﴿فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؟ يقول: فبأي تخويف وتحذير وترهيب بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه، الذي أتاهم به من عند الله في أي كتابه يصدقون، إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمد من عند الله عز وجل؟! وقد روى الإمام أحمد<sup>(١)</sup> عن حسن بن موسى وعفان بن مسلم وعبد الصمد بن عبد الوارث، كلهم عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن أبي الصلت عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسرى بي، فلما انتهينا إلى السماء السابعة، فنظرت فوقى فإذا أنا برعد ويرق وصواعق، وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا، فلما نزلت إلى السماء الدنيا فنظرت إلى أسفل منى، فإذا أنا برهج ودخان وأصوات، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هؤلاء الشياطين يحومون على أعين بني آدم أن لا يتفكروا في ملكوت السموات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب». علي بن زيد بن جدعان له منكرات. ثم قال تعالى:

﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيِّ هَادِي لَمْ يَدْرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٦٨﴾﴾

يقول تعالى: من كتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر فإنه لا يجزى عنه شيئا، ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْبَى الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَلُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْحًا إِلَّا هُوَ نُقِلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٣] قيل: نزلت في قريش. وقيل: في نفر من اليهود. والأول أشبه؛ لأن الآية مكية، وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعادا لوقوعها، وتكديبا بوجودها؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا لَأْتِي الْآيَاتِ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ فِي السَّاعَةِ لِي سَلَكِلَ بَيْدِي﴾ [الشورى: ١٨]. وقوله: ﴿أَيَّانَ مَرْسَلُهَا﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: متهاها أي: متى محطها؟ وأيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول

(١) أخرجه أحمد (٨٤٢٦)، وابن ماجه، (٢٢٧٣).

وقت الساعة؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ أمر تعالى رسوله ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة، أن يرد علمها إلى الله تعالى؛ فإنه هو الذي يجليها لوقتها، أي يعلم جلية أمرها، ومتى يكون على التحديد، لا يعلم ذلك إلا هو تعالى، ولهذا قال: ﴿تَنقَلَّتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، في قوله: ﴿تَنقَلَّتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: ثقل علمها على أهل السموات والأرض، أنهم لا يعلمون، قال معمر: قال الحسن: إذا جاءت ثقلت على أهل السموات والأرض، يقول: كبرت عليهم.

وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿تَنقَلَّتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، قال: ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة. وقال ابن جريج: ﴿تَنقَلَّتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: إذا جاءت انشقت السماء، وانتشرت النجوم، وكورت الشمس، وسيرت الجبال، وكان ما قال الله عز وجل، فذلك ثقلها، واختار ابن جرير رحمه الله أن المراد ثقل علم وقتها على أهل السموات والأرض، كما قال قتادة، وهو كما قاله كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾ ولا ينفي ذلك ثقل مجيئها على أهل السموات والأرض، والله أعلم. وقال السدي: ﴿تَنقَلَّتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول: خفيت في السموات والأرض، فلا يعلم قيامها حين تقوم ملك مقرب، ولا نبي مرسل ﴿لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾ يغيثهم قيامها، تأتيمهم على غفلة. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾: قضى الله أنها ﴿لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾. قال: وذكر لنا أن نبي الله كان يقول: «إن الساعة تهيج بالناس، والرجل يصلح حوضه، والرجل يسقى ماشيته والرجل يقيم سلعته في السوق ويخفض ميزانه ويرفعه». وقال البخاري<sup>(١)</sup>: حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، أنبأنا أبو الزناد عن عبد الرحمن عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، ولتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه. ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقوم الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه، ولتقوم الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها» وقال مسلم<sup>(٢)</sup> في صحيحه: حدثني زهير بن حرب، حدثنا سفيان بن عيينة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: «تقوم الساعة والرجل يحلب لقحته، فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم الساعة. والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم الساعة. والرجل يلوط حوضه فما يصدر حتى تقوم».

وقوله: ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾: اختلف المفسرون في معناه، فقيل: معناه كما قال العوفي عن ابن عباس: ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ يقول: كأن بينك وبينهم مودة، كأنك صديق لهم. قال ابن عباس: لما سأل الناس النبي ﷺ عن الساعة سأله سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفي بهم، فأوحى الله إليه: إنما علمها عنده، استأثر به، فلم يطلع الله عليها ملكاً مقرباً ولا رسولاً، وقال قتادة: قالت قريش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة، فأسر إلينا متى الساعة؟ فقال الله عز وجل ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾. وكذا روى عن مجاهد وعكرمة وأبي مالك والسدي، وهذا قول. والصحيح عن

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٥٤).

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٠٦).

مجاهد من رواية ابن أبي نجيح وغيره ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَيٌّ عِنَّا﴾ قال: استحفيت عنها السؤال حتى علمت وقتها. وكذا قال الضحاك عن ابن عباس: ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَيٌّ عِنَّا﴾ يقول: كأنك عالم بها، لست تعلمها ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾.

وقال معمر عن بعضهم: ﴿كَأَنَّكَ حَيٌّ عِنَّا﴾: كأنك عالم بها. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿كَأَنَّكَ حَيٌّ عِنَّا﴾: كأنك بها عالم وقد أخفى الله علمها على خلقه، وقرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان: ٣٤]. وهذا القول أرجح في المقام من الأول، والله أعلم، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُخَبِّرُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ نَقَلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بِنُورٍ﴾ ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَيٌّ عِنَّا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup>؛ ولهذا لما جاء جبريل عليه السلام في صورة أعرابي، ليعلم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد، وسأله ﷺ عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم قال: فمتى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» أي لست أعلم بها منك ولا أحد بها من أحد، ثم قرأ النبي ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان: ٣٤]. وفي رواية: فسأله عن أشراط الساعة، فبين له أشراط الساعة، ثم قال: «في خمس لا يعلمهن إلا الله» وقرأ هذه الآية، وفي هذا كله يقول له بعد كل جواب: «صدقت»؛ ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدق، ثم لما انصرف قال رسول الله ﷺ: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»، وفي رواية قال: «وما أتاني في صورة إلا عرفته فيها، إلا صورته هذه».

وقد ذكرت هذا الحديث بطرقه وألفاظه من الصحاح والحسان والمسانيد، في أول شرح البخاري، ولله الحمد والمنة، ولما سأله ذلك الأعرابي وناداه بصوت جهورى فقال: يا محمد، قال له رسول الله ﷺ: «هاؤم» - على نحو من صوته - قال: يا محمد، متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك! إن الساعة آتية، فما أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام، ولكنني أحب الله ورسوله، فقال له رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب». فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث، وهذا له طرق متعددة في الصحيحين<sup>(٢)</sup> وغيرهما عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المرء مع من أحب» وهي متواترة عند كثير من الحفاظ المتقين. ففيه أنه، عليه السلام، كان إذا سئل عن هذا الذي لا يحتاجون إلى علمه أرشدهم إلى ما هو الأهم في حقهم، وهو الاستعداد لوقوع ذلك والتهيؤ له قبل نزوله وإن لم يعرفوا تعيين وقته، ولهذا قال مسلم<sup>(٣)</sup> في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب قالا: حدثنا أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ، سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فينظر إلى أحدث إنسان منهم فيقول: «إن يعيش هذا لم يدره الهرم حتى قامت عليكم ساعتكم». يعني بذلك موتهم الذي يفرض بهم إلى الحصول في برزخ الدار الآخرة. ثم قال مسلم<sup>(٤)</sup>: وحدثنا أبو بكر بن

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، والنسائي (٤٩٩١).

(٢) سبيل تخرجه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥١١)، ومسلم (٢٩٥٢) عن عائشة.

(٤) أخرجه مسلم، (٢٩٥٣)، وأحمد (١٣٤٣٨) عن أنس.

أبى شيبة، حدثنا يونس بن محمد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الساعة، فقال رسول الله ﷺ: «إن يعيش هذا الغلام فعسى أن لا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة». انفرد به مسلم. وحدثني حجاج بن الشاعر، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا سعيد بن أبى هلال المصبرى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ قال: متى الساعة؟ فسكت رسول الله ﷺ هنيهة، ثم نظر إلى غلام بين يديه من أزد شنوءة فقال: «إن عمر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة» قال أنس: ذلك الغلام من أترابى، وقال: حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا همام، حدثنا قتادة عن أنس قال: مر غلام للمغيرة بن شعبه وكان من أترابى فقال النبي ﷺ: «إن يؤخر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة». ورواه البخارى فى كتاب «الأدب» من صحيحه، عن عمرو بن عاصم عن همام بن يحيى عن قتادة عن أنس، أن رجلاً من أهل البادية قال: يا رسول الله، متى الساعة؟ فذكر الحديث، وفى آخره: «فمر غلام للمغيرة بن شعبه» وذكره. وهذا الإطلاق فى هذه الروايات محمول على التقييد بـ «ساعتكم» فى حديث عائشة رضى الله عنها.

وقال ابن جريج<sup>(١)</sup>: أخبرنى أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر: «تسألونى عن الساعة، وإنما علمها عند الله، وأقسم بالله ما على ظهر الأرض اليوم من نفس منفوسة، تأتى عليها مائة سنة». رواه مسلم. وفى الصحيحين، عن ابن عمر مثله، قال ابن عمر: وإنما أراد رسول الله ﷺ انخرام ذلك القرن. وقال الإمام أحمد<sup>(٢)</sup>: حدثنا هشيم، أنبأنا العوام عن جبلة بن سحيم عن مؤثر بن عفارة عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى» قال «فتذكروا أمر الساعة»، قال: «فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام، فقال: لا علم لى بها، فردوا أمرهم إلى موسى فقال: لا علم لى بها فردوا أمرهم إلى عيسى فقال عيسى: أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله عز وجل، وفيما عهد إلى ربي عز وجل أن الدجال خارج - قال - ومعى قضيبان، فإذا رأنى ذاب كما يذوب الرصاص»، قال: فيهلكه الله عز وجل إذا رأنى حتى إن الشجر والحجر يقول: يا مسلم إن تحتى كافراً فتعال فاقتله، قال: «فيهلكهم الله عز وجل ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم»، قال: فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حذب ينسلون، فيطأون بلادهم، لا يأتون على شىء إلا أهلكوه ولا يمرون على ماء إلا شربوه»: قال: «ثم يرجع الناس إلى فيشكونهم فأدعوا الله عز وجل عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم أى تنتن»، قال: «فينزل الله عز وجل المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر».

قال الإمام أحمد: قال يزيد بن هارون: ثم تنسف الجبال وتمد الأرض مد الأديم، ثم رجع إلى حديث هشيم، قال: وفيما عهد إلى ربي عز وجل أن ذلك إذا كان كذلك، فإن الساعة كالحامل المتم لا يدرى أهلها متى تفاجئهم بولادتها ليلاً أو نهاراً. ورواه ابن ماجه عن بNDAR عن يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب بسنده، نحوه. فهؤلاء أكابر أولى العزم من المرسلين، ليس عندهم علم بوقت

(١) أخرجه مسلم (٢٥٣٨) عن جابر بن عبد الله. (٢) سبق تخريجه.

الساعة على التعيين، وإنما ردوا الأمر إلى عيسى عليه السلام، فتكلم على أشراتها؛ لأنه ينزل في آخر هذه الأمة منفذاً لأحكام رسول الله ﷺ ويقتل المسيح الدجال، ويجعل الله هلاك يأجوج ومأجوج بركة دعائه، فأخبر بما أعلمه الله تعالى به.

وقال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا عبيد بن إباد بن لقيط، قال: سمعت أبي يذكر عن حذيفة قال: سئل رسول الله ﷺ عن الساعة، فقال: «علمها عند ربي عز وجل لا يجليها لوقتها إلا هو، ولكن سأخبركم بمشاريطها وما يكون بين يديها: إن بين يديها فتنة وهرجاء»، قالوا: يا رسول الله، الفتنة قد عرفناها، فما الهرج؟ قال بلسان الحبشة: «القتل». قال: «ويلقى بين الناس التناكر، فلا يكاد أحد يعرف أحداً». لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه. وقال وكيع: حدثنا ابن أبي خالد عن طارق بن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ لا يزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسُهَا﴾ الآية [النزعات: ٤٢]، ورواه النسائي من حديث عيسى بن يونس عن إسماعيل بن أبي خالد به، وهذا إسناد جيد قوى. فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم محمد صلوات الله عليه وسلامه نبي الرحمة ونبي التوبة، ونبي الملحمة، والعاقب والمقفي والحاشر الذي تحشر الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح<sup>(٢)</sup> من حديث أنس وسهل بن سعد رضي الله عنهما: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، وقرن بين أصبعيه السبابة والتي تليها. ومع هذا كله، قد أمره الله أن يرد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلِمْتُ عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْحًا إِلَّا هُوَ قُلَّتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَافٍ عَلَيْهَا قُلْ إِنَّمَا عَلِمْتُ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَسْتَكَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أعلمه الله عليه، كما قال تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَمْنُ خَلْفَهُ رَصَدًا﴾ الآية [الجن: ٢٦-٢٧]. وقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَسْتَكَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ قال عبد الرزاق عن الثوري عن منصور عن مجاهد: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَسْتَكَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ قال: لو كنت أعلم متى أموت لعملت عملاً صالحاً. وكذا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد وقال مثله ابن جريج، وفيه نظر؛ لأن عمل رسول الله ﷺ كان ديمة. وفي رواية: كان إذا عمل عملاً أثبتته، فجميع عمله كان على منوال واحد كأنه ينظر إلى الله عز وجل في جميع أحواله، اللهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك، والله أعلم. والأحسن في هذا ما رواه الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَسْتَكَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ أي من المال. وفي رواية: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلا

(١) أخرجه أحمد (٢٢٧٩٥) عن حذيفة.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١) عن أنس، والبخاري (٥٣٠١)، ومسلم (٢٩٥٠) عن سهل بن سعد.

ربحت فيه، ﴿وَمَا مَسَّنِيَ الضُّوْبُ﴾، ولا يصيبني الفقر.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من المخضبة، ولوقت الغلاء من الرخص، فاستعددت له من الرخص. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿وَمَا مَسَّنِيَ الضُّوْبُ﴾ قال: لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون، واتقيته، ثم أخبر أنه إنما هو نذير وبشير، أى نذير من العذاب، وبشير للمؤمنين بالجنات، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا حَفِيمًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَتَتْكَ دَعَاكَ اللَّهُ رَبُّهَا لِيْنَ ءَاتِيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّكِرِيْنَ ﴿١٣١﴾ فَلَمَّا ءَاتَتْهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ ﴿١٣٢﴾﴾

ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم، عليه السلام، وأنه خلق منه زوجته حواء، ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعْرًا وَقَابِلًا لِتَعَارُفًا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَتَقْوَاهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ الآية [النساء: ١]، وقال فى هذا الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أى ليالفها ويسكن بها، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين؛ ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيدته إلى التفرقة بين المرء وزوجه ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أى وطئها ﴿حَمَلَتْ حَمَلًا حَفِيمًا﴾، وذلك أول الحمل لا تجد المرأة له ألمًا، إنما هى النطفة ثم العلقة ثم المضغة. وقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قال مجاهد: استمرت بحمله. وروى عن الحسن وإبراهيم النخعي والسدى نحوه، وقال ميمون بن مهران عن أبيه: استخفته. وقال أيوب: سألت الحسن عن قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قال: لو كنت رجلاً عربياً لعرفت ما هى إنما هى؟ فاستمرت به، وقال قتادة ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾: استبان حملها.

وقال ابن جرير: معناه استمرت بالماء قامت به وقعدت. وقال العوفي عن ابن عباس: استمرت به فشكت أحملت أم لا؟ ﴿فَلَمَّا أَتَتْكَ﴾ أى صارت ذات ثقل بحملها. وقال السدى: كبر الولد فى بطنها ﴿دَعَاكَ اللَّهُ رَبُّهَا لِيْنَ ءَاتِيْتَنَا صَالِحًا﴾ أى: بشرًا سويًا، كما قال الضحاك عن ابن عباس: أشفقاً أن يكون بهيمة. وكذلك قال أبو البخترى وأبو مالك: أشفقاً أن لا يكون إنساناً. وقال الحسن البصرى: لئن آتيتنا غلاماً ﴿لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّكِرِيْنَ﴾ فلما ءاتتهما صالِحاً جعلاً لهم شركاء فيما ءاتتهما فتعلّى الله عما يشركون يذكر المفسرون ههنا آثاراً وأحاديث سأوردها وأبين ما فيها، ثم تتبع ذلك ببيان الصحيح فى ذلك، إن شاء الله وبه الثقة.

قال الإمام أحمد<sup>(١)</sup> فى مسنده: حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن إبراهيم، حدثنا قتادة عن الحسن

(١) أخرجه أحمد (١٩٦١٠)، والترمذي (٣٠٧٧)، وقال: هذا حديث حسن غريب، والحاكم فى المستدرک (٢/٥٩٤)، حديث (٤٠٠٣) وقال: هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه.

عن سمرة عن النبي ﷺ قال: «لما ولدت حواء طاف بها إبليس - وكان لا يعيش لها ولد - فقال: سمية عبد الحارث؛ فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره» وهكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن بشار عن بندار عن عبد الصمد بن عبد الوارث به، ورواه الترمذي في تفسير هذه الآية عن محمد بن المثنى عن عبد الصمد به، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه، ورواه الحاكم في مستدرکه من حديث عبد الصمد مرفوعاً، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره عن أبي زرعة الرازي عن هلال بن فياض عن عمر بن إبراهيم به مرفوعاً. وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث شاذ بن فياض عن عمر بن إبراهيم مرفوعاً. قلت: وشاذ هو: هلال، وشاذ لقبه. والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه:

(أحدها): أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصرى، وقد وثقه ابن معين، ولكن قال أبو حاتم الرازي: لا يحتج به. ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعاً، فالله أعلم.

(الثاني): أنه قد روى من قول سمرة نفسه ليس مرفوعاً، كما قال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر عن أبيه وحدثنا بكر بن عبد الله بن سليمان التيمي، عن أبي العلاء بن الشخير عن سمرة بن جندب قال: سمي آدم ابنه عبد الحارث.

(الثالث): أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه. قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع حدثنا سهل بن يوسف عن عمرو عن الحسن ﴿جَمَلًا لَّهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَهُمْ﴾ قال: كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم. وحدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور عن معمر قال: قال الحسن: عنى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده يعنى: - قوله: ﴿جَمَلًا لَّهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَهُمْ﴾ وحدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد عن قتادة قال: كان الحسن يقول: هم اليهود، والنصارى رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا، وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضى الله عنه أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ، لما عدل عنه هو ولا غيره، ولا سيما مع تقواه لله وورعه، فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما، كما سيأتى بيانه إن شاء الله إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع، والله أعلم. فأما الآثار فقال محمد بن إسحاق بن يسار عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فيعبدهم لله ويسميهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك، فيصيبهم الموت، فأتاهما إبليس فقال: إنكما لو سميتما بغير الذى تسميان به لعاش، قال: فولدت له رجلاً فسماه «عبد الحارث»، ففيه أنزل الله يقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ - إلى قوله: - ﴿جَمَلًا لَّهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَهُمْ﴾ إلى آخر الآية.

وقال العوفي عن ابن عباس قوله فى آدم: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ - إلى قوله: - ﴿فَمَرَّتْ

يُدِّعُ شَكَتَ: أحملت أم لا؟ ﴿فَلَمَّا أَتَتْكَ دَعْوَا اللَّهِ رَبِّهَمَا لَيْنَ ءَاتَيْنَا صَاحِبًا لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، فأتاهما الشيطان، فقال: هل تدريان ما يولد لكم؟ أم هل تدريان ما يكون؟ أبيهمة أم لا؟ وزين لهما الباطل؛ إنه غوى مبين، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا، فقال لهما الشيطان: إنكما إن لم تسمياه بي لم يخرج سوياً ومات كما مات الأول، فسميا ولدهما عبد الحارث، فذلك قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاتَتْهُمَا صَاحِبًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَهُمَا﴾ الآية.

وقال عبد الله بن المبارك عن شريك، عن خصيف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: ﴿فَلَمَّا ءَاتَهُمَا صَاحِبًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَهُمَا﴾ قال: قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ بَيْنَهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّيْهَا آدَمُ ﴿حَمَلَتْ﴾ فأتاهما إبليس - لعنه الله - فقال: إنني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني أو لأجعلن له قرني إبل فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن - يخوفهما - فسمياه «عبد الحارث» فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً، ثم حملت الثانية فأتاهما أيضاً، فقال: أنا صاحبكما الذي فعلت ما فعلت لتفعلن أو لأفعلن - يخوفهما - فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً، ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضاً فذكر لهما فأدركهما، حب الولد فسمياه «عبد الحارث»، فذلك قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَهُمَا﴾ رواه ابن أبي حاتم. وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه كعجماه وسعيد بن جبير وعكرمة، ومن الطبقة الثانية: قتادة والسدي وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة، وكأنه - والله أعلم - أصله مأخوذ من أهل الكتاب، فإن ابن عباس رواه عن أبي بن كعب، كما رواه ابن أبي حاتم حدثنا أبي، حدثنا أبو الجماهر، حدثنا سعيد يعني ابن بشير عن عقبة عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال: لما حملت حواء أتاها الشيطان، فقال لها: أتطيعيني ويسلم لك ولدك؟ سميه «عبد الحارث»، فلم تفعل، فولدت فمات، ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل، ثم حملت الثالثة فجاءها فقال: إن تطيعيني يسلم، وإلا فإنه يكون بهيمة، فهيهما فأطاعا. وهذه الآثار يظهر عليها - والله أعلم - أنها من آثار أهل الكتاب، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال<sup>(١)</sup>: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»، ثم أخبرهم على ثلاثة أقسام: فمنها: ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله، ومنها ما علمنا كذبه، بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً. ومنها: ما هو مسكوت عنه فهو المأذون في روايته، بقوله عليه السلام<sup>(٢)</sup>: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» وهو الذي لا يصدق ولا يكذب، لقوله: «فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم».

وهذا الأثر: هو من القسم الثاني أو الثالث، فيه نظر. فأما من حدث به من صحابي أو تابعي، فإنه يراه من القسم الثالث، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، ولهذا قال الله ﴿فَتَضَلَّى اللَّهُ عَنَّا يَشْرِكُونَ﴾ وهو كالأستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس، كقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ الآية [الملك: ٥]، ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زين بها السماء ليست هي التي يرمى بها، وإنما

(٢) سبق تخريجه.

(١) سبق تخريجه.

هذا استطراد من شخص المصاييح إلى جنسها، ولهذا نظرنا في القرآن، والله أعلم.

﴿أَشْرَكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٧٤﴾ وَلَا يَسْتَبِيعُونَ لَمْ نَصِّرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْتَجِيبُوا سِوَاءَ عَلِيكَزْ أَدْعَوْتَهُمْ أَمْ أَنْتَ صَاحِبُوت ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُنثَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧٧﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ ﴿٧٨﴾ إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَبِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنظِرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٨١﴾﴾

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئاً من الأمر ولا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تنصير لعابديها، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم؛ ولهذا قال: ﴿أَشْرَكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٧٤﴾﴾ أي أشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئاً ولا يستطيع ذلك، كقوله تعالى: ﴿بِتَأْيِهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَمِعُوا لِلَّهِ لِكِ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْتَأْذِنُوا لَنْ يَسْمَعُوا شَيْئًا لَا يَسْتَفِئُوهُ مِنْهُ ضَمُكُ الطَّلَابِ وَالطَّلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤-٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣-٧٤]، أخبر تعالى أن الكهتيم لو اجتمعوا كلهم، ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو سلبتهم الذبابة شيئاً من حقير المطاعم وطارت، لما استطاعوا إنقاذه منها، فمن هذه صفته وحاله كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٧٤﴾﴾ أي بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل: ﴿أَتُبَدُّونَ مَا نَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الصفات: ٩٥-٩٦].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَبِيعُونَ لَمْ نَصِّرًا﴾ أي لعابديهم ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرُونَ﴾ يعني: ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء، كما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة، كما أخبر تعالى عنه في قوله: ﴿قَرَأَ عَلَيْهِمْ نَبْرًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصفات: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَمْ لَمْ لَهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨]، وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما، وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل؛ ليعتبر قومهما بذلك ويرتنوا لأنفسهم، فكان لعمر بن الجموح وكان سيدياً في قومه صنم يعبد ويطلبه، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه ويلطخانه بالعذرة، فيجىء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به، فيغسله ويطلبه، ويضع عنده سيفاً ويقول له: انتصر، ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه أيضاً، حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت، ودلباه في جبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك، نظر ففلم أن ما كان عليه من الدين باطل، وقال:

تالله لو كنت إلهاً مستدن لم تك والكلب جميعاً في قرن

ثم أسلم فحسن إسلامه، وقتل يوم أحد شهيداً رضى الله عنه وأرضاه، وجعل جنة الفردوس مأواه.  
 وقوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا﴾ الآية معنى: أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها،  
 وسواء لديها من دعاها ومن دحها، كما قال إبراهيم: ﴿يَتَأْتَىٰ لِمَ تَعْبُدُونَ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ  
 شَيْئًا﴾ ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها، أى مخلوقات مثلهم، بل الأناسى أكمل منها، لأنها تسمع  
 وتبصر وتبش، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك.

وقوله: ﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الآية، أى استنصروا بها على، فلا تؤخرونى طرفة عين، واجهدوا  
 جهدكم! ﴿إِنَّ وِلْيَةَ اللَّهِ الَّتِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ أى الله حسبى وكافى، وهو نصيرى  
 وعليه متكلى واليه الجأ، وهو ولى فى الدنيا والآخرة، وهو ولى كل صالح بعدى. وهذا كما قال هود  
 عليه السلام لما قال له قومه: ﴿إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَبْتَنَّ يَسُوًّا قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ بِاللَّهِ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا  
 تَشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَيَكْذِبُنِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذَةٌ بِيْئَانِيَّأ إِنَّ  
 رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤-٥٦]، وكقول الخليل: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ  
 فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّتِي خَلَقَنِي فَهِيَ بَيْدِي وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾  
 [الشعراء: ٧٥-٨٠] الآيات، وكقوله لأبيه وقومه: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّتِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا  
 كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ إلى آخر الآية، مؤكداً لما تقدم، إلا أنه بصيغة الخطاب، وذلك  
 بصيغة الغيبة؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَلْبِطُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ﴾، وقوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى  
 الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ﴾  
 الآية [فاطر: ١٤].

وقوله: ﴿وَتَرَاهُمْ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ إنما قال: ﴿يُنظَرُونَ إِلَيْكَ﴾ أى: يقابلونك بعيون  
 مصورة كأنها ناظرة، وهى جماد، ولهذا عاملهم معاملة من يعقل؛ لأنها على صورة مصورة كالإنسان  
 وتراهم ينظرون إليك، فعبر عنها بضمير من يعقل.

وقال السدى: المراد بهذا المشركون، وروى عن مجاهد نحوه. والأول أولى، وهو اختيار ابن  
 جرير، وقال قتادة.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَوِدْ  
 بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ يعنى: خذ ما عفى لك من أموالهم، وما  
 أتوك به من شىء فخذ، وكان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها وما انتهت إليه  
 الصدقات، قاله السدى. وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾: أنفق الفضل، وقال سعيد بن  
 جببر عن ابن عباس: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال: الفضل. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿خُذِ  
 الْعَفْوَ﴾ أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم، واختار هذا القول  
 ابن جرير.

وقال غير واحد عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿حُذِّ اَلْمَعْوَةَ﴾ قال: من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس. وقال هشام بن عروة عن أبيه: أمر الله رسول الله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس، وفي رواية قال: خذ ما عفى لك من أخلاقهم، وفي صحيح البخارى عن هشام عن أبيه عروة عن أخيه عبد الله بن الزبير قال: إنما أنزل ﴿حُذِّ اَلْمَعْوَةَ﴾ من أخلاق الناس وفي رواية عن أبيه عن ابن عمر، وفي رواية عن هشام عن أبيه عن عائشة أنهما قالا مثل لك، والله أعلم.

وفي رواية سعيد بن منصور<sup>(١)</sup> عن أبي معاوية عن هشام عن وهب بن كيسان عن أبي الزبير ﴿حُذِّ اَلْمَعْوَةَ﴾، قال: من أخلاق الناس، والله لاأخذنه منهم ما صحبتهم، وهذا أشهر الأقوال، ويشهد له ما رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم جميعاً: حدثنا يونس حدثنا سفيان هو ابن عيينة عن أمي قال: لما أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ ﴿حُذِّ اَلْمَعْوَةَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «ما هذا يا جبريل؟» قال: إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك وتصل من قطعك، وقد رواه ابن أبي حاتم أيضاً عن أبي يزيد القراطيسى كتابة، عن أصبغ بن الفرج عن سفيان عن أبي عن الشعبي نحوه، وهذا مرسل على كل حال، وقد روى له شواهد من وجوه آخر، وقد روى مرفوعاً عن جابر وقيس بن سعد بن عبادة عن النبي ﷺ أسندهما ابن مردويه.

وقال الإمام أحمد<sup>(٢)</sup>: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا معاذ بن رفاعة، حدثني علي بن يزيد عن القاسم بن أبي أمامة الباهلى عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال: لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده فقلت: يا رسول الله أخبرني بفواضل الأعمال، فقال: «يا عقبة صل من قطعك، وأعط من حرمك، وأعرض عمن ظلمك» وروى الترمذى نحوه من طريق عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد به. وقال: حسن. قلت: ولكن علي بن يزيد وشيخه القاسم أبو عبد الرحمن فيهما ضعف. وقال البخارى<sup>(٣)</sup> قوله: ﴿حُذِّ اَلْمَعْوَةَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ﴾: العرف: المعروف.

حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب عن الزهري، أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخى لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لى عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هى يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ ﴿حُذِّ اَلْمَعْوَةَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ وإن هذا من الجاهلين، والله ماجاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله عز وجل، وانفرد بإخراجه البخارى.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أخبرنا ابن وهب، أخبرني مالك بن أنس عن عبيد الله بن نافع أن سالم بن عبد الله بن عمر مر على غير لأهل الشام وفيها جرس،

(١) رواه الطبرى (١٥٥/٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٨٨٣).

(٣) أخرجه البخارى (٤٦٤٢).

فقال: إن هذا منهي عنه، فقالوا: نحن أعلم بهذا منك، إنما يكره الجدل الكبير، فأما مثل هذا فلا بأس به، فسكت سالم وقال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّاتِ﴾ وقول البخارى: العرف المعروف، نص عليه عروة بن الزبير والسدى وقتادة وابن جرير وغير واحد، وحكى ابن جرير أنه يقال: أوليته معروفًا وعارفًا وعارفة، كل ذلك بمعنى المعروف، قال: وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف، ويدخل فى ذلك جميع الطاعات وبالإعراض عن الجاهلين، وذلك وإن كان أمرًا لنبيه ﷺ فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم لا بالإعراض عن جهل الحق الواجب من حق الله، ولا بالصفح عن كفر بالله وجهل وحدانيته وهو للمسلمين حرب. وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة فى قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّاتِ﴾ قال: هذه أخلاق أمر الله بها نبيه ﷺ ودله عليها، وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى فسبكه فى بيتين فيهما جناس، فقال:

خذ العفو وأمر بعرف كما      أمرت وأعرض عن الجاهلين  
ولئن فى الكلام لكل الأنام      فمستحسن من ذوى الجاه لين

وقال بعض العلماء: الناس رجلان، فرجل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يحرجه، وإما مسيء فمره بالمعروف، فإن تمادى على ضلاله واستعصى عليك واستمر فى جهله فأعرض عنه، فلعل ذلك أن يرد كيده، كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّذِي هُوَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ مَنْ أَعْلَمَ بِمَا يَصِفُونَ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّذِي هُوَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُرٌّ حَظِيٍّ عَظِيمٍ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ فَاَسْتَوِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [نصفت: ٣٤-٣٦] أى هذه الوصية ﴿وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ فَاَسْتَوِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وقال فى هذه السورة الكريمة أيضًا: ﴿وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ فَاَسْتَوِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فهذه الآيات الثلاث فى الأعراف والمؤمنون وحم السجدة لا رابع لهن، فإنه تعالى، يرشد فيهن إلى معاملة العاصى من الإنس بالمعروف بالتى هى أحسن فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [نصفت: ٣٤] ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان، فإن لا يكفه عنك الإحسان وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك، وقال ابن جرير فى تفسير قوله: ﴿وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ﴾ وإما بغضبك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهل ويحملك على مجازاته ﴿فَاَسْتَوِذْ بِاللَّهِ﴾ يقول: فاستجر بالله من نزغه ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لجهل الجاهل عليك والاستعاذة به من نزغه ولغير ذلك من كلام خلقه لا يخفى عليه منه شىء عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما نزلت ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّاتِ﴾ قال: يارب كيف بالغضب؟، فأنزل الله ﴿وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ فَاَسْتَوِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قلت: وقد تقدم فى أول الاستعاذة حديث الرجلين اللذين تسابا بحضرة النبى ﷺ فغضب أحدهما حتى

جعل أنفه يتمرغ غضبًا، فقال رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقيل له، فقال: ما بي من جنون. وأصل التمرغ الفساد إما بالغضب أو غيره، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ لَبِأَدَى يُؤُولُوا إِلَيَّ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣] والعياذ الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشر، وأما الملاذ ففى طلب الخير، كما قال أبو الطيب المتنبى فى شعره:

يا من ألوذ به فيما أومله      ومن أعوذ به مما أحاذره  
لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره      ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة فى أول التفسير بما أغنى عن إعادته ههنا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿١٣٦﴾  
وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْبِرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر أنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ أى أصابهم «طَائِفٌ». وقرأ الآخرون «طَائِفٌ»، وقد جاء فى حديث وهما قراءتان مشهورتان، فقيل: بمعنى واحد، وقيل: بينهما فرق، ومنهم من فسر ذلك بالغضب، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه، ومنهم من فسره بالهم بالذنب، ومنهم من فسره بإصابة الذنب وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أى عقاب الله وجزيل ثوابه ووعده، ووعيده، فتأبوا وأتابوا واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ أى قد استقاموا وضحوا مما كانوا فيه. وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه<sup>(٢)</sup> ههنا حديث محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ وبها طيف فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يشفينى، فقال: «إن شئت دعوت الله شفاك، وإن شئت فاصبرى ولا حساب عليك» فقالت: بل أصبر ولا حساب على، ورواه غير واحد من أهل السنن وعندهم قالت: يا رسول الله إنى أصرع وأتكشف، فادع الله أن يشفينى، فقال: «إن شئت دعوت الله أن يشفك، وإن شئت صبزت ولك الجنة» فقالت: بل أصبر ولى الجنة، ولكن ادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها فكانت لا تتكشف، وأخرجه الحاكم فى مستدركه، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عمرو بن جامع من تاريخه أن شابًا كان يتعبد فى المسجد، فهوته امرأة فدعته إلى نفسها، فما زالت به حتى كاد يدخل معها المنزل، فذكر هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ فخر مغشيًا عليه، ثم أفاق فأعادها، فمات، فجاء عمر فعزى فيه أباه، وكان قد دفن ليلاً فذهب فصلى على قبره بمن معه، ثم ناداه عمر فقال: يا فتى ﴿وَلِمَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦] فأجابته الفتى من داخل القبر: يا عمر قد أعطانيهما ربى عز وجل فى الجنة مرتين.

وقوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ﴾ أى وإخوان الشياطين من الإنس كقوله: ﴿إِنَّ اللَّبْدِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾ [الإسراء: ٢٧] وهم أتباعهم والمستمعون لهم، القابلون لأوامرهم يمدونهم فى الغي

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٢٨٢)، ومسلم برقم (٢٦١٠).

(٢) أخرجه أحمد (٩٣٩٦)، والحاكم فى المستدرک (٢٤٣/٤) حديث (٧٥١١).

أى تساعدهم الشياطين على المعاصى وتسهلها عليهم وتحسنها لهم .

وقال ابن كثير : المد الزيادة يعنى يزيدونهم فى الغى يعنى الجهل والسفه ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قيل : معناه : إن الشياطين تمد الإنس لا تقصر فى أعمالهم بذلك ، كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله : ﴿وَلِيَحْزَنَهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ الآية ، قال : لا الإنس يقصرون عما يعملون ، ولا الشياطين تمسك عنهم ، وقيل : معناه كما رواه العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قال : هم الجن يوحون إلى أوليائهم من الإنس ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ ، يقول لا يسأمون ، وكذا قال السدى وغيره : إن الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس ولا تسأم من إمدادهم فى الشر ، لأن ذلك طبيعة لهم وسجية ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ لا تفتقر فيه ولا تبطل عنه ، كما قال تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكُفْرَيْنَ تُؤْذِعُهُمْ أَذًا﴾ [مریم: ٨٣] قال ابن عباس وغيره : ترعجهم إلى المعاصى إزعاجا .

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِيَهُمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّيكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول : لولا تلقيتها . وقال مرة أخرى : لولا أحدثتها فأنشأتها ، وقال ابن جرير عن عبد الله بن كثير عن مجاهد فى قوله : ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِيَهُمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ قال : لولا اقتضيتها ، قالوا : تخرجها عن نفسك ، وكذا قال قتادة والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، واختاره ابن جرير . وقال العوفى عن ابن عباس : ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول : تلقيتها من الله تعالى .

وقال الضحاك ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول : لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء ، ومعنى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِيَهُمْ بَيِّنَةٌ﴾ أى معجزة وخارق ، كقوله تعالى : ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لِمَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الشعراء: ٤] يقولون للرسول ﷺ : ألا تجهد نفسك فى طلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها ، قال الله تعالى له : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ أى أنا لا أتقدم إليه تعالى فى شىء ، وإنما أتبع ما أمرنى به فأمثل ما يوحىه إلى ، فإن بعث آية قبلتها وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها إلا أن يأذن لى فى ذلك ، فإنه حكيم عليم ، ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات وأبين الدلالات وأصدق الحجج والبيئات ، فقال : ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّيكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُمْ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة ، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظاما له واحتراما ، لا كما كان يعتمد كفار قريش المشركون فى قولهم : ﴿لَا تَسْمَعُوا لَنَا الْقُرْآنَ وَالْقَوْمَ فِيهِ لَمَلَكُؤُ تَلْبِئُونَ﴾ الآية [نصفت: ٢٦] ، ولكن يتأكد ذلك من الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة ، كما رواه مسلم <sup>(١)</sup> فى صحيحه من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا ، وإذا قرأ فأنصتوا» وكذا رواه أهل السنن من حديث أبى هريرة

أيضاً، وصححه مسلم بن الحجاج أيضاً، ولم يخرج في كتابه، وقال إبراهيم<sup>(١)</sup> بن مسلم الهجري عن أبي عياض عن أبي هريرة قال: كانوا يتكلمون في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ والآية الأخرى، أمروا بالإنصات.

قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم عن المسيب بن رافع قال ابن مسعود: كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة، فجاء القرآن ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. وقال أيضاً: حدثنا أبو كريب، حدثنا المحاربي عن داود بن أبي هند عن بشير بن جابر قال: صلى ابن مسعود فسمع ناساً يقرأون مع الإمام، فلما انصرف قال: أما أن لكم أن تفهموا، أما أن لكم أن تعقلوا ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ كما أمركم الله، قال<sup>(٢)</sup>: وحدثني أبو السائب، حدثنا حفص عن أشعث عن الزهري قال: نزلت هذه الآية في فتى من الأنصار كان رسول الله ﷺ كلما قرأ شيئاً قرأه، فنزلت ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾. وقد روى الإمام أحمد<sup>(٣)</sup> وأهل السنن من حديث الزهري عن أبي أكيمة الليثي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال: «هل قرأ أحد منكم معي آتفاً؟» قال رجل: نعم يا رسول الله، قال: «ليني أقول ما لي أنزع القرآن» قال: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وصححه أبو حاتم الرازي.

وقال عبد الله بن المبارك عن يونس عن الزهري قال: لا يقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام، تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يسمعهم صوته، ولكنهم يقرأون فيما لا يجهر به سرّاً في أنفسهم، ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سرّاً ولا علانية، فإن الله تعالى قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

قلت: هذا مذهب طائفة من العلماء أن المأموم لا يجب عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام لا الفاتحة ولا غيرها، وهو أحد قولي الشافعية، وهو القديم كمنهـب مالك ورواية عن أحمد بن حنبل، لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة، وقال في الجديد: يقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم، وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: لا يجب على المأموم قراءة أصلاً في السرية ولا الجهرية بما ورد في الحديث<sup>(٤)</sup> «من كان له إمام فقراءته قراءة له» وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر مرفوعاً، وهو في موطأ مالك عن وهب بن كيسان عن جابر موقوفاً، وهذا أصح وهذه المسألة مبسوطه في غير هذا الموضع، وقد أفرد لها الإمام أبو عبد الله البخاري مصنفاً على حدة، واختار وجوب القراءة خلف الإمام في السرية والجهرية أيضاً، والله أعلم. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ يعني في الصلاة المفروضة، وكذا روى عن عبد الله بن المغفل.

(١) رواه الطبري (١٦٣/٩) عن أبي هريرة. (٢) رواه الطبري (١٦٣/٩).

(٣) أخرجه أحمد (٧٧٦٠)، وأبو داود (٨٢٦)، والترمذي (٣١٢) والنسائي (٩١٩).

(٤) أخرجه أحمد (١٤٢٣٣)، وابن ماجه (٨٥٠).

وقال ابن جرير: حدثنا حميد بن مسعدة، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا الجريري عن طلحة بن عبيد الله بن كريب قال: رأيت عبيد بن عمير وعطاء بن أبي رباح يتحدثان، والقاص يقص، فقلت: ألا تستمعان إلى الذكر وتستوجبان الموعود؟ قال: فنظرا إلى ثم أقبلنا على حديثهما، قال: فأعدت فنظرا إلى وأقبلنا على حديثهما، قال: فأعدت الثالثة قال: فنظرا إلى فقالا: إنما ذلك في الصلاة ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُمْ وَأَصْبِتُوا﴾ وكذا قال سفيان الثوري عن أبي هشام إسماعيل بن كثير عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُمْ وَأَصْبِتُوا﴾ قال: في الصلاة، وكذا رواه غير واحد عن مجاهد.

وقال عبد الرزاق عن الثوري عن ليث عن مجاهد قال: لا بأس إذا قرأ الرجل في غير الصلاة أن يتكلم، وكذا قال سعيد بن جبيرة والضحاك وإبراهيم النخعي وقتادة والشعبي والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن المراد بذلك في الصلاة.

وقال شعبة عن منصور: سمعت إبراهيم بن أبي حمزة يحدث أنه سمع مجاهداً يقول في هذه الآية ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُمْ وَأَصْبِتُوا﴾ قال: في الصلاة والخطبة يوم الجمعة، وكذا روى ابن جريج عن عطاء مثله، وقال هشيم عن الربيع بن صبيح عن الحسن قال: في الصلاة وعند الذكر. وقال ابن المبارك عن بقية: سمعت ثابت بن عجلان يقول: سمعت سعيد بن جبيرة يقول في قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُمْ وَأَصْبِتُوا﴾ قال: الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة وفيما يجهر به الإمام من الصلاة، وهذا اختيار ابن جرير أن المراد من ذلك الإنصات في الصلاة وفي الخطبة، كما جاء في الأحاديث من الأمر بالإنصات خلف الإمام وحال الخطبة. وقال عبد الرزاق عن الثوري عن ليث عن مجاهد أنه كره إذا مر الإمام بآية خوف أو بآية رحمة أن يقول أحد من خلفه شيئاً، قال: السكوت. وقال مبارك بن فضالة عن الحسن: إذا جلست إلى القرآن فأنصت له.

وقال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا عباد بن ميسرة عن الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة». تفرد به الإمام أحمد رحمه الله تعالى.

﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾

سجدة

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيرًا، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله: ﴿فَأَسْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩] وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، وهذه الآية مكية.

وقال هenna: بالغدو، وهو أول النهار، والآصال جمع أصيل كما أن الأيمان جمع يمين، وأما قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أي اذكر ربك في نفسك ورغبة ورهبة وبالقول لا جهراً، ولهذا قال: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداءً وجهرًا بليغًا، ولهذا لما سألوا رسول الله ﷺ

(١) أخرجه أحمد (٨٢٨٩).

فقالوا<sup>(١)</sup>: أقریب ربنا فتناجیه، أم بعيد فتنادیه؟ فأنزل الله عز وجل ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وفى الصحيحين<sup>(٢)</sup> عن أبى موسى الأشعري رضى الله عنه قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء فى بعض الأسفار، فقال لهم النبى ﷺ: «يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، إن الذى تدعونه سمیع قريب أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته» وقد يكون المراد من هذه الآية كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا يَخَافُ يَهَا وَأَبْتَعُ بَيْنَ ذَلِكَ سُبُلًا﴾ [الإسراء: ١١٠] فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه وسبوا من أنزله وسبوا من جاء به، فأمره الله تعالى أن لا يجهر به؛ لثلاث ينال منه المشركون ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعونهم، وليتخذ سبيلا بين الجهر والإسرار، وكذا قال فى هذه الآية الكريمة ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ وقد زعم ابن جرير وقبله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن المراد بها أمر السامع للقرآن فى حال استماعه بالذكر على هذه الصفة. وهذا بعيد مناف للإنصات المأمور به.

ثم إن المراد بذلك فى الصلاة كما تقدم أو فى الصلاة والخطبة، ومعلوم أن الإنصات إذ ذاك أفضل من الذكـر باللسان، سواء كان سرا أو جهرا، فهذا الذى قالاه لم يتابعا عليه، بل المراد الحـض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال، لثلاث يكونوا من الغافلين، ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ الآية، وإنما ذكرهم بهذا ليشبه بهم فى كثرة طاعتهم وعبادتهم، ولهذا شرع لنا السجود ههنا لما ذكر سجودهم لله عز وجل، كما جاء فى الحديث<sup>(٣)</sup> «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها يتمون الصفوف الأول فالأول ويتراصون فى الصف» وهذه أول سجدة فى القرآن مما يشرع لتأليها ومستمعها السجود بالإجماع، وقد ورد فى حديث<sup>(٤)</sup> رواه ابن ماجه عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ أنه عدها فى سجدة القرآن.

آخر سورة الأعراف، ولله الحمد والمنة



(١) رواه الطبرى (١٥٨/٢)، وابن حبان فى الثقات (٤٣٦/٨)، حديث (١٤٢٨٩)، عن الصلت بن حكيم عن أبيه عن جده.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم (٤٣٠)، وأبو داود (٦٦١) والنسائي (٨١٦)، وابن ماجه (٩٩٢) عن جابر بن سمرة.

(٤) أخرجه ابن ماجه برقم (١٠٥٦) عن أبى الدرداء.